اربع محاضرات
فى
التربية فى انجلترا وامريكا

ومقارنتها بالتربية عند الامم اللاثينية

سلمنى قياد التربيــة وأنا كفيل
بأن أغير وجه أوروبا قبل قرن
واحد من الزمان ؟
ليبنتز

Donnez-moi l'éducation
et je changerai la face de
l'Europe avant un siècle.
Leibnitz

(ألقـاها)

احمد فهمى العمروسى بك

مدير المكتب الفنى بوزارة المعارف

(على ملأ من رجال التعليم بنقابة المعلمين)

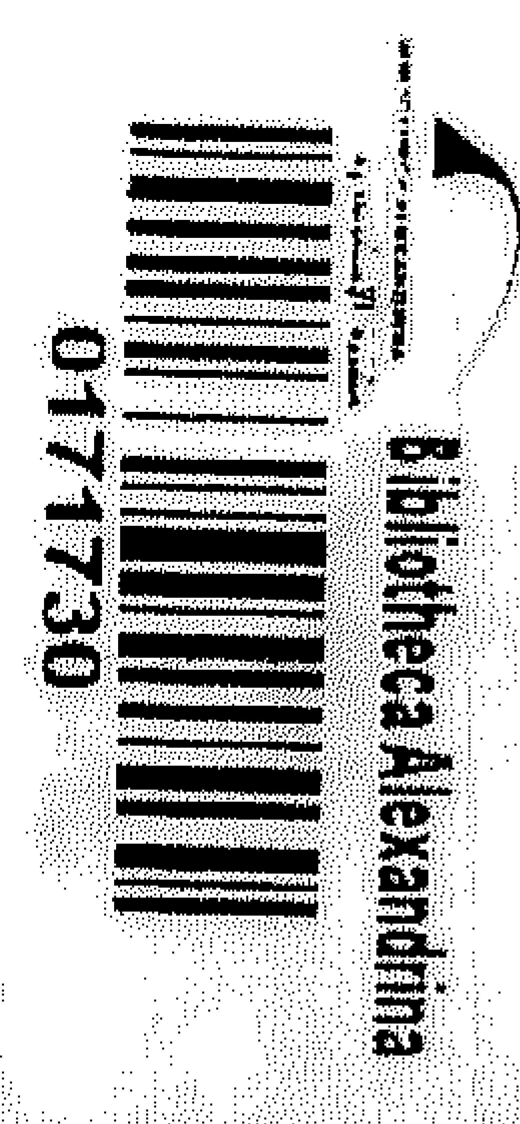
فى يناير سنة ١٩٢١ ومايو سنة ١٩٢٥

(قررت وزارة المعارف تدريس هذا الكتاب)
(بمدارس المعلمين والمعلمات)

« الطبعة الثانية »

١٩٢٦ م — ١٣٤٤ هـ

الثمن ١٠ قـ



مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية
٥٠٠٠/٢٦/١٥٩٠



اربع محاضرات

فى

التربية فى انجلترا وامريكا

ومقارنتها بالتربية عند الامم اللاتينية

(ألقاها)

احمد فهمى العمروسى بك

مدير المكتب الفنى بوزارة المعارف

(على ملأ من رجال التعليم بنقابة المعلمين)

فى يناير سنة ١٩٢١ ومايو سنة ١٩٢٥

(قررت وزارة المعارف تدريس هذا الكتاب)

(بمدارس المعلمين والمعلمات)

« الطبعة الثانية »

١٩٢٦ م — ١٣٤٤ هـ



سلمنى قياد التربيـة وأنا كفيل بأن أغير وجه أوروبا قبل قرن واحد من الزمان ؟

ليبنتز

Donnez-moi l'éducation et je changerai la face de l'Europe avant un siècle.

Leibnitz

التربية في انجلترا

المحاضرة الاولى

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد الثناء على الله جل شأنه والصلاة والسلام على أنبيائه ورسله أشكر لحضراتكم بركم بالأدب وجميل مظاهرتكم للعلم واستباقكم إلى تشجيع الباحثين فيه والمنقبين عنه وخاصة فنون التربية التي أنتم حُماة ذِمارها وخيرة أنصارها وأرجو أن يصيب مقالي الغرض الذى سددته اليه، ويأتى بالثمرة التي رجوتها منه،

منذ عشر سنين أتذكر أنى قمت مثل هذا المقام بين جملة من المتخرجين فى دار العلوم وطلاّبها شارحاً شيئاً من آراء هربارت الألمانى فى التربية واليوم أتشرف بأن أقوم أمام جماعة المعلمين لأذكرهم ببعض ما يعلمون من آراء الانجليز فى التربية والتعليم، والموازنة بينها و بين التربية والتعليم فى فرنسا ، على ما اتسعت له الطاقة، و بلغ الجهد لعلنا نجد فى شيء من ذلك نفعاً للغلة وإنهاضاً للتربية فى بلادنا الى مثل منزلتها العالية فى الأمم الراقية

وإن المعلومات التى سأذكرها لكم مستمدةٌ من كتب فرنسية وضعها سنة ١٨٩٥ كتَّاب فرنسيون تربوا فى انجلترا ودرسوا طرق التربية فيها وعُرضت كتبهم على المجمع العلمى فأقرها ونالت بذلك صبغة رسمية أو شبيهة بها وسترون من نص حديثها أنها كثيراً ما تؤثر الطرق الانجليزية على غيرها، وليس بدعاً فالفرنسيون لا يأنفون أن يحتذوا أمة من الأمم فى فرع من الفروع ايثاراً للحق وضناً بالنفع واعترافاً بالفضل لأهله وما أعدلهم اذ يقولون (أعطِ ما لقيصرَ لقيصر)

ولئن يسرلى الله غداً العثور على معرفة صحيحة فى طرق التربيةعندالامريكان أواليابان لأتقدمن فى موافاتكم بها وايقافكم عليها إن رأيت فيها ما يصلح من حالنا ويقوّم من عِوَجنا « فالحكمة ضالة المؤمن ينشدها حيث يجدها » وتعلمون أن الأمة كالفرد لن ترقى رقيها وتنزل منزلتها حتى توازن بين أسبابها وأسباب غيرها من الأمم الراقية، أما اذا اعتزلت من عداها من الأمم فان مثلها يكون كمثل الماء الراكد تنتابه عوارض الفساد ويصبح قرارة لجراثيم الأمراض

ولقد علمت بطول الاختبار أن علم التربيـة على جلالة

قدره وعظيم منزلته وجمال أثره فى النفوس يتركب من عدة قضايا صغيرة واعتبارات وملاحظات تظهر لأول وهلة أنها تفهة لا يؤبه لها ولكنها مع المداومة وطول الأناة قد يكون لها من النتائج ما لا يكاد يتصوره الانسان

قلّ أن يقرأ الإنسان حكاية أو يسمع فكاهة دون أن يجد فيها غرضاً من أغراض التربية المتشعبة ويضيفها الى باب من أبوابها المتفرقة

ألا إن مجالَ فن التربية واسعُ المدى — بل لا حدّ له — ولا غرو فموضوعه الإنسان وهو ذلك اللغز المغلق الذى حارت البرية فى فهم كنهه والوصول الى غوره

وتزعم أنك جِرم صغير وفيك انطوى العالم الاكبر

نظام التربية والتعليم فى انجلترا

إن نظام التربية والتعليم فى انجلترا يختلف اختلافاً ظاهراً عنه فى فرنسا وفى غيرها من سائر الأمم الأخرى

والإنجليز يتمسكون به ويحرصون عليه أشد الحرص ولن يقدِر أحد من المصلحين على نقد قاعدة أو عادة منه أو نقض عقيدة من عقائده ولو كانت أشبه بالخرافة الا أن يسلك

الى غرضه سبيل الملاينة ويبذل من الحكمة والمصانعة مقداراً عظيماً فان لم يفعل فانه يؤذن بحرب ويؤذى بكل لسان

وانا لباحثون فى الأطوار التى يمر بها الشاب الانجليزى والبيئات التى يجتازها من بدأته الأولى الى أن يضع قدمه فى معترك الحياة لنوفّى الموضوع بعض حقه من البيان والشرح فنقول :

يمر الانجليزى من مدرج طفولته الى أن يكون كهلاً ببيئتين عظيمتين كلتاهما عالم فى ذاته كامل فى عُدته وهما البيت والمدرسة فيصقل فيهما صقلاً ويصاغ صوغاً يبقى أثره فيه مدى الحياة

وفى كلا الموطنين يعنى بتربيته تربية كاملة جامعة بين إنماء الجسم وتهذيب الخلق وتثقيف العقل لأن الانكليز لا يفرقون كغيرهم بين التربيـة والتعليم ولا يستطيعون أن يتصوروا فى أنفسهم أن يقتصر عمل البيت أو المدرسة على تخريج رجال أفاضل مهذبين لا علم عندهم أو علماء متبحرين لا أخلاق لهم ولا خير فيهم

فالتربية والتعليم عندهم يمتزج بعضهما ببعض لا ينفصل

أحدهما عن الآخر حتى أن لغتهم نفسها على سخائها لا تجود عليهما الا بكلمة واحدة جامعة للمعنيين هى كلمة (Education) « تربية »

واذا كانت الحكمة الإلٰهية قد جعلت تطور الإنسان فى أدوار حياته سائراً على خطة معينة فكان نمو جسمه وتيقظ وجدانه سابقين ظهور العقل وجب على المربين أن يحتذوا مثالها ويجروا على رسمها بادئين بتربية البدن وتهذيب الخلق ومعقبين بتثقيف العقل، والإنجليز تلاميذ الطبيعة ومغرمون بتقليدها فى كل شيء

التربية البيتية

يتألف المجتمع الراقي الانجليزى من قبيلين من الناس: العصاميين وهم الذين عركوا الدهر وذاقوا حلو الأيام ومرها ودرسوا أخلاق الأمم فى مدرسة الحياة العملية (Self Made Men) والعظاميين المربين فيالمدارس الذين تفيئوا ظلال العلم فى الجامعات العتيقة (University Men) وكلاهما من قبل منشأ على أساس واحد فيه طابع التربية البيتية

البيت

عند الانجليز لفظ وجيز (Home) يعبرون به عن البيت وهو عندهم لفظ حسيب قيم قد يقل وجود كلمة تماثله فى اللغات الأخرى

ذلك البيت بمعناه المفهوم عند الانجليز هو الحرم المحروس الذى لا يأوى اليه الا أفراد الأسرة وله فى قلب كل انجليزى منزلة لا تساميها منزلة يلهج بذكره أينما حل أو رحل ويطرب لسماع أحاديثه العذبة وتذكاراته المحبوبة التى يعتقد أنه وحده هو الذى يحس جمالها ويدرك كنه تأثيرها ويتغني بمجده وشرفه شعراً ونثراً بأنه حمى يتمتع الانسان فيه بالراحة الهادئة والاستقلال التام وينعم بالامن الذى لا وحشة معه والصفاء الذي لا كدر فيه

فاذا دخلته هموم الدنيا الخارجية أو سمح أحد الزوجين لأجنبي بعيد عن الجد والأدب أن يطأ بقدميه عتبته فهو ليس بالبيت المنشود وانما هو بناء سقف بسقف وأضئ من الداخل بمصباح (أعنى أن له صورة البيت وليس ببيت)

البيت الخليق بهذا الاسم عندهم هو ذلك الحرم المقدس

المحفوف من جوانبه برعاية الله لا يعتوره الفساد من بين يديه ولا من خلفه ولا يدخله الامن يقابل فيه بالترحاب، من المخلصين من الآل والأصحاب.

« وقد ترجمته بالبيت لأن البيت يأتى بمعنى العيال فيقال بيت الرجل عياله ويأتي أيضاً بمعنى الشرف فيقال بيت العرب شرفها »

عميد البيت :

وعميد البيت هو الزوج القابض على زمامه المتصرف فى أموره يدير شئونه على ما يرى غير مدافَع ولا منازَع فهو الذى أسسه وشيد دعائمــه والقانون والاجتماع يلقيان على عاتقه تبعة القيام باعبائه وهديه للتي هى أقوم حتى يبلغ به أقصى درجات الكمال، لا يسأل على ذلك أجراً الا الطاعة والاحترام فهو يريد أن يكون أباً محترماً قبل أن يكون أباً محبوباً وقد انطبعت هذه الإرادة فى نفوس بنيه وذويه حتى إنك لتسمع الشاب الانجليزى — اكثر ما يكون — يخاطب أباه بكلمة Sir (سيدى) كما يخاطب الخادم سيده، وقد لاحظ كاتب أمريكى

مع شيء من الدهَش والاستغراب أن المرأة فى انجلترا تعتبر الرجل أرقى منها مكانة وأسمى منزلة فقال « ان انجلترا هى جنة الرجال »

والسبب فى هناء الانجليزى فى بيته ورغَد عيشه أنه أولاً يعرف كيف يحترم نفسه وثانياً أنه هو الذى أسس البيت وشيد دعائمه على نفقته فكان سيده لأن أكثر الانكليزيات يتزوجن فقيرات لا يقدمن مهراً فلهذا ترى الانكليزى محترماً فى بيته ، أما الذين يطلبون المال من الزواج فهؤلاء لهم أن يطمعوا فى المال كما يريدون ، ولكن هيهات أن يطمعوا فى الاحترام . بل لا بد لهم من النزول عنه لمن اشترينه منهم بأموالهن ولا ريب أن النزول عن الاحترام نزول عن الحياة فان الاحترام غذاء النفس كما أن الطعام غذاء الجسم فهما فى قوام الحياة سيَّان ولله در الامام على إذ يقول : احتج الى من شئت تكن أسيره ، واستغن عمن شئت تكن نظيره ، وأحسن الى من شئت تكن أميره

وقد أكد ذلك الاحترام ما خوله القانون إياه من السلطة التامة ، والتصرف المطلق فى أموال الأسرة بأكملها ، فأمره

طاعة ، وإرادته ماضية على زوجهِ وولده ، لايقتر على نفسهِ ابتغاء التوسعة عليهم ، ولا يتكالب على جمع المال ليتركه من بعده لهم

وقصاراهُ أنهُ ملزم بمقتضى الرسوم القومية والقانون أحياناً برد ضيعة بعينها أو وصية خاصة الى بكر أولاده ، كما صنع أبوه من قبل ، وبعد ذلك هو ملك مطلق فى مملكتهِ محترم بين رعاياهُ احتراماً يكاد يكون دينياً . ولا كذلك الأب الفرنسى فانهُ فى أسرته أشبهُ برئيس منتخَب فى مجلس نيابى أسس على المشادّة والمناقشة ، يقول مستر همرتن فى كتابهِ (الانكليز والفرنسيون) المطبوع سنة ١٨٩١ : سألت فرنسياً من أصدقائى ، مابال أولادك يكلمونك بحرية تامة دون أن يظهر عليهم أنهم متأثرون بهيبة السلطة الأبوية فأجابنى وكيف ننتظر منهم احتراماً واعتباراً ونحن قد علمناهم احتقار معتقدات آبائنا وأنظمة أجدادنا ، اننا لم نغرس فى قلوبهم خلة الاحترام

قال وأما نظرية الانكليز فى احترام الأبناء للآباء ، فتؤخذ مما يلى : عرفت شاباً كان لا يذهب الى الكنيسة الا

نادراً ولما رزق أربعة من الأولاد وبلغ البكر منهم سن العاشرة أخذ يذهب اليها بنظام لاعتقاده أن الدين من ألزم الأمور العاملة فى التربية ، وأنه من الواجب عليه أن يكون قدوة حسنة لأولاده كلما تحركوا وأيفعوا ، وكان يلعب (التنس) يوم الأحد فى حديقته فأبطل هذه العادة أيضاً تعزيزاً لما يتلقاه أولاده فى المدرسة من احترام ذلك اليوم ، وترك العمل فيه اقتداء بالخالق جل شأنه على ما يعتقدون ، واستن لنفسه من ذلك الحين السُّنة الآتية : احترِم إذا شئت أن تُحترَم

الزوجة الانجليزية

أما المرأة الانجليزية فتمتاز بالشجاعة والإقدام والصبر على احتمال المشاق لاتهتم كثيراً بما يأتى بِهِ الغد ولا تهاب ماقد تضمره لها الأيام والأسفار البعيدة من المباغتات والمُفاجآت فهى ظل زوجها حيث سار تشاطره الخفة فى الحركة والمضاء فى العزيمة بما أُوتيت من بسطة فى الجسم ومتانة فى الخلق فهى زوجة تحرص قبل كل شىء على القيام بواجبها نحو زوجها

على أفضل ما يكون ، ثم تُعنى بتربية أولادها على أكمل وجه وأتمه ، فهي زوجة قبل أن تكون أُماً ، بخلاف المرأة الفرنسية فان حبها لولدها يَقدُم كل شيء ثم يأتى بعدُ حُبها لبعلها حتى كأنما هى أمٌّ قبل أن تكون زوجة ، وقد تغلو فى ذلك الى حد الاخلاد الى الراحة والأمن والاكتفاء بقليل من سعادة داخلية يسيرة ، فلا تجشم زوجها صعاب الأسفار ، وركوبَ الأخطار لأنها لا تبغى الانفصال عن أولادها ، والتغرب عن أوطانها ، فكم من همم ثَبَّطَتْ ، وأعمال أَحبطت ، ومشروعات أَبطلت بركونها الى الدَّعة . وإفراطها فى الحنو على أولادها

ذهب العالم الطبيعى الفرنسى « ملن ادوردز » لزيارة اكسفورد مرة فأخذه الدهَش من قلة ما يدرس فيها من العلوم وبينما كان ذات ليلة يستريض مع من كانوا مكلفين مرافقته ، وكان من بينهم أستاذ علم الجيولجيا وهو معروف بالصراحة التامة ، إذ قال لهم ما بال الشبان الانكليز لا يتعلمون فى المدرسة إلاّ قليلا من اللاتينية واليونانية ويقضون بقية أوقاتهم فى لعبة الكركيت والسباحة والجدف ثم يصبحون من غير

عناء رجالاً من الطراز الأول وحكاماً حاذقين وسياسيين محنكين كپامرستون وغلادستون فأجابهُ أستاذ علم الجيولجيا من فوره "They have got English Mothers" ذلك لأن لهم أمهات انجليزيات والجواب على بعده من الظَّرف والمجاملة اللائقة بالضيف فيه أكبر قسط من الحقيقة لأن الأم المهذبة من أهم العوامل الناهضة بالأولاد إلى ذروة السعادة والمجد ولقد أحسن شاعرنا حافظ إذ يقول :

الأم مدرسة اذا أعددتها   أعددت شعباً طيب الاعراق

الأم الانكليزية تشغف بأولادها وتقوم بالواجب لهم خير قيام فترضعهم بنفسها وتشرف على حركاتهم وسكناتهم كامل الإشراف ولكن لا يرى على وجهها أو من خلال أعمالها ذلك الحنو الزائد وتلك الشفقة التي تفيض عادة من غيرها من الأمهات فهي تسير في تربيتهم على قاعدة قويمة وخطة مرسومة فتدعهم من نعومة أظفارهم يكابدون الحوادث، ويلمسون الأخطار بأيديهم ، ويتعرفون ما حولهم ، ليميزوا الخبيث من الطيب ، وليفرقوا بين الغث والسمين واضعة نصب عينيها أمراً مهماً وهو غرس بذور الرجولة في نفوسهم

وتكوين مبادئ الشجاعة والشهامة فى طباعهم حتى إن الواحد
منهم إذا همّ بالبكاء عند وقوعه على الأرض ابتدرته بقولها له
"Be a man" كن رجلاً ولا تبك ، فان البكاء المسموح به
لأختك عار عليك ، يسمع الطفل عشرين مرة فى اليوم كن
رجلاً ولا تبك فان البكاء عار على الرجال فتؤثر فى نفسه
بالتكرار والاستمرار ، وقد شوهد كثير من الاطفال قبل
أن يعرفوا القراءة والكتابة بلغ من تربيتهم على هذا النمط
أنهم يملكون أنفسهم ويضبطون عواطفهم حتى إنهم ليُمسكون
عن البكاء إذا مسهم ضر أو نالهم أذى ، وبينما هم كذلك
يتدرجون فى مدارج الرجولية ويمرنون على تذليل العقبات
إذ الشاب الفرنسى لا يزال غراً لا يعى من ذلك شيئاً لوجوده
بين اثنين ، أم لا تدعهُ لحظة يعانى المصادفات ويقاوم الطبيعة ،
ممسكة برجليهِ حتى لا تزلَّ قدماه اذا كان صغيراً ، وبزمامه كى
لا يركب شططاً أو يأتى غلطاً اذا كان كبيراً ، وأب يظل نهاره
يكدح فى جمع ثروة يتركها له من بعده فهو بين أبوين ، أم
تسعد له الحال ، وأب يكفل له الاستقبال

حكاية مدام (ا) ومدام (ب)

مدام (ا) باريزية تقطن باريس وتربى أولادها على النمط الفرنسى طبعاً

ومدام (ب) باريزية أيضاً ولكنها سكنت مدينة لندن فربّت اولادها على الطراز الانكليزىّ

وحدث أنهما حضرتا معاً فى العطلة الصيفية إلى ريف فرنسا وأقامتا بقريتين متجاورتين

وكانت المسافة بين منزل مدام (ا) ومدرسة ابنها ٥٠٠ متر، على حين كانت المسافة بين منزل مدام (ب) ومدرسة ابنها أربعة كيلو مترات، ولكن مدام (ا) مع قرب مدرسة ابنها من منزله كانت ترافقه اليها ذهاباً وجيئة لا تفتر عن ذلك يوماً واحداً

أما مدام (ب) فقد وكلت ابنها فى ذهابه إلى مدرسته البعيدة عن منزله إلى نفسه فكان (وهو من سن ابن صاحبتها) يخرج من البيت وحده مبكّراً متأبّطاً كتبه كالرجل المعتمد على نفسه ويقطع ٤ كيلو مترات ذهاباً ومثلها اياباً دون أن

يشغل بال أُمهِ بهِ

تلك هى شفقة الأمّ الفرنسية وهذه شجاعة الأمّ الانكليزية وكلاهما أمر حسن تحمد المرأتان عليهِ وان آثرنا الثانية على الاولى

ولكن ماذا ترون فى الأمّ المصرية التى تسلم بنيها وبناتها إلى الخدم وهم كما نعهد من أجهل الناس وأحطهم تربية وأسوئهم أخلاقاً

لماذا لا نصحب أبناءنا وبناتنا إلى مدارسهم ومواطن حاجاتهم ونشفق عليهم وهم أفلاذ أكبادنا أن يقبض على أزمتهم من الخدم مَن يخشى أن يؤثّر فساد أخلاقهم فيهم

لعمرى إنها ثُلمة فى بناء تربيتنا المنزلية لابدّ من سدّها وعلة من عللنا الاجتماعية لابد من علاجها لأننا ناهضون والناهض لا يدع فاسداً الاّ أصلحه ولا يعرّج على معوجّ الاّ قوّمه ولا يلوى على شعث الاّ لمه

الأُسرة الانجليزية

يرزق الانجليزى عادة جماً غفيراً من الأولاد يجيئون

متتابعين فيعنى بوضعهم فى حجرة منعزلة خاصة بهم تجرى عليهم فيها أحكام التربية فى سنيهم الأولى وتسمى بالمَرْبَى، (Nursery) والعوامل الأساسية التي يجب أن تتوافر في المَرْبى ثلاثة: الأم والمربية والهواء، وقد وصف الشاعر الشهير راسكن المَرْبى الراقى ذاكراً عهد طفولته فقال: إنهُ حجرة فى الطبقة الأولى من المنزل فسيحة الأرجاء متجددة الهواء وفيرة الضوء تامة النظافة غاية فى السذاجة ينام فيها الطفل ويأكل ويرتع ويلعب لا يخشى كسراً لآنية ثمينة أو اقلاق راحة أمه المريضة أو التهويش على أبيهِ المنكب على عمله، بها حوض كبير يستحمون فيهِ كل صباح بالماء البارد ليزدادوا قوة ونشاطاً، ويراعى في لباسهم السذاجة والسعة والنعومة إذ ليس الغرض منه الزينة والتباهى بجمال الثياب بل الغرض الوقاية من البرد والمطر والهواء مع تمتع الأعضاء بالحركة الحرة والجرى واللعب على ما يشتهي الأطفال. وهم يأكلون معاً فى مواعيد مقررة وطعامهم غير متأنق فيهِ ولا متكلف. ويخرجون كل يوم للتنزه صيفاً وشتاءً مستنفدين الساعات فى الجرى والوثب والطفر وتسلق الأشجار والتدحرج على الأعشاب متحملين فى ذلك

تبعة أعمالهم وعليهم وحدهم يقع الضرر الذى ينجم من عدم إعمال الروية والتبصر فى عواقب الأمور قبل البدء فى تنفيذها

هذا هو المربى الحائز جميع الشروط وما كاد يصفه كاتب ثقة كراسكن ويشير به حتى تبعه قومه فى كل ناحية واتخذته جميع الأسر نموذجاً حسناً يقتدون به وينسجون على منواله، والانكليز أكثر الناس اتباعاً لأقوال حكمائهم وعلمائهم وأسهلهم قياداً واستسلاماً لأوامر رؤسائهم فاذا قال راسكن فالقول ما قال راسكن واذا قال سبنسر فالقول ما قال

وتلك الطاعة المنبعثة عن الرضا الخالصة من شائبة الإكراه هى من صنع التربية الإنكليزية التى اتقنت غرس الفضائل الاجتماعية العالية فى نفوس أفراد الأمة لأنها الأساس الذى يقوم عليه بناؤها

وأذكر على سبيل الاستطراد حكاية لا تعزب عن ذهنى كلما ذكرت الطاعة

اشتهرت قبيلة عبس بالحكمة فى القول والسداد فى الرأى فقيل لرجل منهم : ما أكثر صوابكم فقال نحن ألف رجل وفينا حازم واحد وكلنا نطيعه فكأنا ألف حازم

وبينما الطفل الانكليزى يشب فى المربى على مبادىء الديموقراطية الصحيحة يعيش فيه كفرد من أفراد المجتمع له مالهم وعليه ما عليهم لاسلطان له على أحد من إخوته ولو كانوا أصغر منه سناً نجد الطفل الفرنسى يعيش فى حضن أمه ملازما لها ملازمة الظل للعود حتى لقد يلهيها عن العناية بالتزين والتجمل ويجلس على المائدة مع أمه وأبيه وإخوته متى استطاع الجلوس فيهوش عليهم ببكائه ويوسعهم من تدلله وصخبه والكل خاضع لأوامره ومنفذ لرغائبه فعجيب ألاّ يشب هذا على حب الذات وقلة الاكتراث للتبعات

اذا انتهى طور الطفولة انتقل الأولاد منه الى مدرسة هى فى نظر الانكليز أهم المدارس نفعاً وأنجعها فى نفوس النشء ألا وهى الأسرة

كثير من الأمم يعتقدون أن الخير كله فى معالجة أبنائهم بالذهاب إلى المدرسة ويظنون أنه خير مكان يقضى فيه الطفل شطراً وافراً من عمره، أما الرأى العام فى انكلترا فلم يذهب مذهبهم ولم يرد أن ينتهج مسلكا يناقض النواميس الطبيعية وبديهيات المنطق

يقول الانكليز كيف يعقل أن يكون بيت الانسان أقل البيئات ملاءمة لأولاده ومعاشرته أقل فائدة من معاشرة الغرباء؟ ألا إن الانكليز يعدون عيباً وعاراً ألا يكون الانسان هو المدرس الأول لابنه وألا تكون بيوتهم مجهزة بكل أداة صالحة للاعداد الكامل للطفل وغرس أصول الفضائل فى نفسه فكأنى بهم يقولون :

« ماحكّ جلدك مثل ظفرك

فتول أنت جميع أمرك »

وان كثيراً منهم ليسيئون الظن بالمدارس ويرون أنها أردأ البيئات وأقلها صلاحاً لتهذيب الأخلاق لاختلاط السليم فيها بالأجرب

لذلك لا يبكر الانكليز بفصل أولادهم عن البيت الى المدرسة الا قبيل العاشرة من عمرهم من بعد أن ينقش على صحائف أفئدتهم صورة جميلة من البيت وتذكارات الطفولة لا يزال يطويها وينشرها ويتغلغل فى نواحى نفسه حب الوطن مهما بعدت الدار وشط به المزار

فليس عجيباً أن يجمع الانكليزى بين متناقضين : انفاق

زهرة العمر وريعان الشباب مهاجراً متغرباً تشرق به قاصية الأقاليم كالذين لا أهل لهم ولا وطن يضمهم ، والاغرام في آن واحد ببيته والولوع بحب وطنه رافعاً عقيرته متغنياً بهما أينما حل أو رحل

وإذا لم تتمكن الأسرة من القيام بهذا الواجب لأسباب قاهرة أو كان الأولاد قد نضجت أفكارهم ونزعوا الى علم أوسع ومعارف أرقى مما يتهيأ لهم في منازلهم وتحت رعاية آبائهم يرسلون الى مدارس خاصة (Private Schools) يقوم بشؤون التربية فيها رجل وامرأته، أما الرجل فهو من أفضل الناس رقة حاشية وكمال أدب وكرم عشرة وحسن معاملة فهو ممن يسميهم الانجليز (gentlemen)

ولقد أحسن الشاعر العربي في وصف ذلك السري المقصود بتلك الكلمة الانجليزية حيث يقول:

ومن ذا الذي ترضي سجاياه دائماً
سوى الفاضل الندب الأديب المجرب

تراه بماء اللطف طهّر ثوبه
وزين حوباه بخلق مهذب

الى هذا السرى الذي اكثر ما يكون أستاذاً من أساتذة الجامعة (Aggrégé) يدفع الوالد ولده وفلذة كبده واثقاً من أنه سيتعهد بذور الصلاح فى نفسه ويجعل يومه خيراً من أمسه ويغرس فى نفسه مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم عالماً أنه لن يسمع ابنه معه هُجراً فى قول ولا يرى منكراً من عمل. يقبل هذا السرى فى داره من عشرة الى عشرين تلميذاً يعيشون معه ويقوم بتربيتهم واعدادهم للتعليم الثانوى واذا اضطُر الى قبول اكثر من هذا العدد تخلى عن بعض أعماله الأخرى أو استعان بسرى آخر من اخوانه المدرسين .

وأما الزوجة فهى من فضليات النساء تشرف على كل ما هو قوام للحياة الداخلية من مأكل وملبس وما يتصل بهما من الشؤون

وهذا الطراز من المدارس كثير الانتشار جداً فى انجلترا ونقتصر هنا على ذكر اثنتين منه نضربهما مثلا لقومنا لعل فريقاً منهم ينصبون أنفسهم لخدمة بلادهم لهذا النوع من التعليم وفيه عدا ذلك لهم الحرية والغنى والشرف الدهر كله

أولهما مدرسة (Bowden House School.) بالقرب

من (.Harrow) وهى تقبل التلاميذ من سن السابعة الى الخامسة عشرة ، ويتقاضى استاذها عن كل تلميذ من ٨٠ الى ١٠٠ جنيه فى العام

والثانية مدرسة فى Isle of Wight قام بتأسيسها جماعة من خريجى (.Cambridge) واشتروا لها قصر الكونت (Yarborough) وتبلغ مساحته ٧٠٠ فدان انكليزى ولا تقبل هذه المدرسة على اتساعها المفرط اكثر من خمسين تلميذاً

وفيها قسم لتعليم الحياة الاستعمارية (.Colonial Life) فيمرّن الاطفال فى هذا القسم على الأعمال الزراعية ويعطون ضيعة يقومون بادارة شؤونها ويعلمون اللغات الشائعة (الحية) وخاصة الهندوستانية ، ويمنح الطالب الذى يبلغ سن السابعة عشرة حق اصطياد طيور المدرسة

وشجاعة تلاميذ تلك المدارس يضرب بها المثل

حكى مسيو تين «.Taine» فى كتابه .Notes Sura l» «Angleterre» أنه رأى غلاماً صغيراً ممتطياً برذوناً ووراءه أخواته الكبيرات وفيما هم سائرون فى وسط الحقول اذ رأوا ثوراً

ضخماً يتطاير الشر من عينيه فالتفت الغلام الى أخواته وقال لهن أيتها الفتيات اتبعنني ولا تخفن مكروهاً

مما تقدم يرى ان الدعامة الكبرى التى يرتكز عليها صرح التربية الانجليزية انما هى الثقة بالاطفال بمجرد أن يدرجوا ويفهموا إذ يوكلون الى أنفسهم فى جميع أمورهم : فى المربى ثم فى البيت ثم فى المدرسة

نعم يثقون بهم فى أعمالهم فيتركون لهم الحرية التامة فى اختيار السبيل التى يسلكونها بعد إيضاح الجادة لهم وانارة الطرق أمامهم ، فاذا لم يجيدوا الاختيار فعليهم وحدهم يقع الضرر وكذلك يثقون بكلامهم فهم صادقون فى حديثهم مصدقون فى أهلهم وخلطائهم الا أن تقوم حجة على غير ذلك

وتلك هي الطريقة المثلى التى هداهم اليها المُربِّى الكبير الدكتور تومس ارنولد من اكثر من نصف قرن كما سنذكره بعد وهم يدينون بها ويحرصون أشد الحرص عليها . والغرض الذى يرمون إليه من اتباع هذه الطريقة هو تعويد أولادهم النشاطَ فى العمل والصراحة فى القول والاستقلال فى الرأى والدُّربة على الثقة بالنفس والاعتماد عليها وايقاظ الشعور

بالتبعة فيهم وقدرهم اياها منذ الصغر قدرها فهم واثقون بأنفسهم وجديرون بالثقة فيهم :

They are self reliant and reliable

هذه هى أهم الفضائل التى يجهز الانجليز بها أبناءهم للنزول الى معترك هذه الحياة لان الولد أولا لايعتمد على ميراث من أبيه الذى خوله القانون حرية التصرف فى أمواله وكثيراما قد يأتى على رأس المال

والأب الإنكليزى من جهة ثانية لايرى حقاً عليه الانفاق على أولاده وتعليمهم الا الى سن السادسة عشرة من أعمارهم ثم يتركهم لأنفسهم ويلقى حبلهم على غاربهم ما عدا البكر منهم وان كان ذلك فى غير الاسر العالية والعشائر الغنية

لهذا وذاك ينزل الشـاب الانكليزى الى ميدان الحياة وليس يخامر فكره أقل شك فى أن عبء حياته كله ملقى على عاتقه وان سعادته معلقة على جده وسعيه وان ليس له سلاح إلاّ الاعتماد على نفسه

فهو مسوق الى العمل بقانون الضرورة مضطر الى السعي بحكم الحاجة ، والحاجة تفتق الحيلة

ومما يجدر بنا ان نلاحظهُ ولا نُغضى عنهُ أنّ أخذَ الانكليز أنفسهم بالتربية على هذا الوجه من المغالاة فى الاعتماد على النفس والاعتداد بالذات « Individualism » من شأنه أن يضعف الرّابطة القومية فيهم

لذلك كانت الأسرة الانكليزية محصورة بين جدران البيت منتهية بانتهاء حدوده فلا يكاد الانكليزى يعرف ذلك الجيش الجرار من ذوى قرابته وأولى رحمه من الأعمام والأخوال والعمات والخالات ومن يدلى اليهم بسبب أو يمتون اليه بلحمة النسب وهو يقول فى أولاد العم : ما نفْع ابناء الأعمام إنهم لاصدقاء ثقلاء وان الصديق الحق هو من وقع عليه اختيارك واصطفيته لنفسك

وان مثل الحكاية الآتية لبرهان على صحة ما نقول :

تقطن مدينة لندن أسرة إنكليزية مؤلفة من أب وأم وابنتين ويتمم اعضاء هذه الاسرة ابنان انفصلا عن محيط دائرة المنزل يحترف أحدهما مهنة الزراعة على بعد نصف ساعة من لندن ويتجر الثاني فى الماشية ببلاد الناتال فمر على الأول ستة أشهر كاملة لم يَحْدُ به الشوق أثناءها الى أن يزور أهله

بمدينة لندن على قرب مزارهم منه :

وأقربُ ما يكون الشوقُ يوماً اذا دَنت الديارُ من الديار

أما الثانى فكان مبلغ ذكراه وحنينه الى أهله ان يكتفى في كل عام بكتاب واحد يبعث به الى أمه أعطف الناس عليه وأبرهم به ، وكذلك كانت حال سائر الأسرة المقيمة بلندن فان البنتين على رقة عواطفهما كانتا اذا جرى بينهما الحديث عن أخويهما البعيدين عنهما لا يبدو منهما ما يدل على انهما متألمتان لجفائهما متأثرتان من عدم مكاتبتهما

المحاضرة الثانية

التعليم الثانوى

اذا بلغت سن الطفل الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة وأصبح بفضل المران في البيت أو المدرسة الخصوصية والدربة على العمل فتى قادراً على احتمال معاشرة الغرباء ودفع أذى الخلطاء ألحق بالمدارس الثانوية وتسمى عندهم بالمدارس العامة «public Schools»

وهى كثيرة غير ان المشهور منها تسع وهى :

Eton. Harrow, Rugby, Wellington, Winchester, Westminster. Charterhouse etc..

وقد امتازت هذه المدارس بتربية ابناء الطبقات الحاكمة والأسر الغنية فأخرجت بلمرستون وغلادستون وأمثالهما من نوابغ الانكليز وكبرائهم

وهذه المدارس التسع هى التى نفذت فيها لاول مرة طريقة الوصاية التى هى أساس التربية الانكليزية .

وانى لا يسعنى فى هذه العجالة الطوافُ بتفاصيل كل واحدة منها لان هذا يستغرق عدة محاضرات

لذلك أقصر الكلام على احداها وهى مدرسة Rugby لاحرازها قصب السبق فى ادخال اصلاحات هامة فى التعليم الثانوى فى انجلترا بفضل نبوغ ناظرها الحكيم الدكتور تومس ارنولد

والغرض الاول من التربية فى هذه المدارس هو إعدد الطفل لأن يكون فى المستقبل رجلا شريفاً شجاعاً ووطنياً عاملا

ومن المثلين الآتيين يتبين مقدار الارتباط بين طلاب المدارس وذلك الغرض الجليل :

(١) كتب أحد الطلاب بمدرسة Rugby فى صحيفة المدرسة السنوية مقالا جاء فيه : إننا معشر الطلاب نكوّن اجتماعاً حقيقياً نعيش فيه لا لنتعلم فحسب بل لنتعلم ونعمل ونحيا كأطفال سيكونون فى الغد رجالاً

(٢) وقال توم بروان فى كتاب «Tom Brown School days» (حياة توم بروان المدرسية) وهو كتاب وضعه أحد خريجى هذه المدرسة أتى فيه على حياة الشاب الانجليزي من بداءتها

فى المدرسة الى دور الزواج وهو كتاب كثير الانتشار بين المتعلمين فى انكلترا وكل واحد منهم يقرأ فيه صفحة ماضية من حياته الخصوصية وصورة مطوية من تذكاراته المدرسية

قال فى أول الكتاب إنه وصل الى المدرسة فى الساعة الثالثة بعد الظهر راكباً عربة (لأن ستة الخطوط الحديدية التى تتقاطع الآن فى Rugby لم تكن أنشئت بعد) وبعد أن استقر به المكان تذكر النصائح التى ألقاها عليه أبوه قبل مغادرته البيت وكذلك تذكر مصافحته اياه باليد لأول مرة فى حياته بدل التقبيل الذى من العادة أن تحي به الأطفال وفى ذلك رمز إلى أن الذى يسلكه أبوه فى المدارس العامة رجل ينبغى أن يُحَيَّا بتحية الرجال

أما تلك النصائح التى زوده بها أبوه فانها آية فى الحكمة وغاية فى السداد فقد قال أبوه : انى ترددت طويلا فى اختيار الكلمة التي أجعلها له عظة ماثلة بين عينيه فى سفره فقلت فى نفسى :

اذا أنا نصحت له باجتناب ملهيات الطريق وضبط النفس من الوقوع فى المفاسد فربما لا يفهم لما أقول معنى ولعلى

بذلك أكون نبهته الى ما كان مصروفاً عنه واذا نصحت له بالجد فى الدرس والتشمير فى تحصيل العلوم ليصبح عالماً فليس ذلك غرضي أو بالحرى ليس ذلك الا جزءاً من الغرض الأكبر الذى أنصبه له وأتمنى أن يناله

وبعد خواطر جالت ثم زالت وقع فى نفسى أن أوصيه بأن يكون رجلا شجاعاً شريفاً نشيطاً وطنياً سَرِياً مسيحياً «Christian Gentleman» ولا أتمنى له المزيد

من هـذين المثلين يتبين أن الغرض الأول من التربية الانكليزية انما هو تكميل النفس بالفضائل العالية وتحليتها بالأخلاق الكريمة. أما تكوين العقل وتثقيفه بالعلوم والمعارف فليس الا جزءاً من ذلك الغرض الأسمى فهم أحق من يتمثل بقول شاعرنا :

وانما الأمم الأخلاق ما بقيت

فإن هُمُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

والآن أرى من الواجب أن أقول كلمة عن ذلك المربى الكبير الدكتور تومس ارنولد الذى كان ناظراً لهذه المدرسة أربع عشرة سنة حارب فى خلالها كثيراً من الطرق العقيمة

التى كانت متبعة فى المدارس الانجليزية ونجح فى وضع مبادئ جديدة حازت الرضا من الانجليز عامة وسرت من مدرسته الى سائر المدارس الأخرى

واذا تناول البحث مسألة التربية والتعليم فى انجلترا فانهم يبدءون باسم تومس مقروناً بالاجلال والاحترام ومع أنه قد مضى على وفاته نحو ثمانين سنة فهم لا يزالون الى اليوم يقدسونه ويعظمون ذكره كما كانوا يقدسونه فى أول يوم بدا لهم فيه سر إصلاحاته الحكيمة التى لم يسبروا غورها البعيد الا بكرّ الأيام ومر الأعوام

كان تومس ارنولد فى أول أمره قساً خامل الذكر ذا روح متوقدة وغيرة مشتعلة ظل يجاهد فى سبيل التربية زماناً دون ان يشعر بنبوغه أحد وكان ذا نظر ساحر يقرأ في الوجوه ما تكنه الضمائر فكان لا يقوى أحد ان يكتمه أمراً او يخفي عنه سراً هذا الى انه كان ذا تأثير يشبه تأثير المغناطيس فكان لا يجتمع به أحد الاّ اجتذبه اليه وسحره بتعاليمه وقد قرأت فى دائرة المعارف الانجليزية انه لما خلت وظيفة ناظر مدرسة Rugby سنة ١٨٢٨ طلَبَ الى مجلس ادارة هذه المدرسة

الالتحاق بها وشفعه بشهادة قال كاتبها : اذا وقع الاختيار على المستر ارنولد فانه سيغير وجه التربية ويقلبها رأساً على عقب في جميع المدارس العامة في انجلترا وهاك النص الانجليزى :

« If Mr. Arnold Were elected he would change the face of Education all throug the public Schools of England »

ولقد صدقت فراسة ذلك الكاتب فى ارنولد وكأنى به يقول له بلسان البارودى :

وَفَيْتُ بِظَنّ الكرام فراسة ... بأمرى ومثلى بالوفاء جدير

وقد بقى يعالج تربية النشء بما أوتى من حذق ومهارة ويبث فيهم روحه ومبادئه الجديدة حتى أخرج لبلاده فتياناً شداداً نافعين ورجالاً قادة كانوا هم أبلغ اعلان لفضله وعلو كعبه وأكبر عامل فى إذاعة صيته في اركان البلاد الانجليزية

وكان تومس ارنولد من ذلك الصنف من الشبان الذين يهتمون بالشؤون العامة كل الاهتمام ويتتبعون سير الحوادث فى بلادهم بكل نشاط وامعان فكان لا يكاد يمر يوم الا ويؤلف فى التاريخ (تاريخ الرومان) ويكتب المقالات الرائقة فى

المجلات العلمية ويكاتب الجرائد السياسية ثم يجد مع هذا من الوقت ما يكفى لادارة مدرسته ادارة حكيمة

وكان يقول فى هذا الصدد انى كلما شحذت ذهنى بالمسائل الخلقية وجلوته بالمرانة على الكلام فى أهم الامور السياسية عاد ذلك بالفائدة الجمة على مدرستى

وفى سنة ١٨٤١ وصله كتاب من اللورد ملبورن رئيس الوزارة اذ ذاك يعرض عليه وظيفة مدرس للتاريخ الحديث فى جامعة اكسفورد فقبل شاكراً وفرح لذلك فرحاً شديداً وأقبل الطلاب على درسه اقبالا وكانوا يتنافسون فى الحصول على مذكراته وطبعها ونشرها بين الناس

ولكن مع الأسف لم تدم سعادة الطلاب به طويلا فما هلّت سنة ١٨٤٢ حتى وقع غير المنتظر وحدث ما ليس فى الحسبان وفوجئوا بنبأ وفاته بذبحة صدرية لم تمهله الا بضع ساعات بُذِل له فى خلالها كل اسعاف وكل علاج ولكن ماذا يفيد العلاج اذا حم القضاء وجاء الأجل

وقد استولى الهلع على طلاب المدارس الذين كانوا يتفانون فى حبه وأخذوا يتساءلون فيما بينهم عن رحي العمل فى المدارس

هل ستظل دائرة بعد أن وقف محركها الأكبر وخفت صوت سائسها الحكيم وإنا نذكر هنا طُرَفاً من آرائه السديدة فى التربية فنقول :

(١) ليس من مذهب تومس فى التربية مراقبة الأطفال مراقبة دقيقة وقد قال فى ذلك انى أريد أن أعلم الأطفال أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم وذلك لعمرى خير من أن أحكمهم بنفسى

ذلك قولٌ حكيم وفكر ثاقب يجب أن يتدبره ويفهم مغزاه أولئك المربون الاتوقراطيون الذين يحاسبون الأطفال على الهمسة ويعاقبونهم على الالتفاتة ويريدون أن يقبضوا عليهم بيد من حديد

يقول تومس ارنولد إن هؤلاء واهمون فى فهم رسالتهم اذ ليس الغرض من التربية أن نُخرج عبيداً ضعافاً أذلاء بل الغرض أن نخرج سادة أحراراً كبار النفوس يتمتعون بالرأى والحرية التامة فى كل مانعرضه عليهم من الاعمال . وإن سلبهم هذه الحرية أو محاولة سلبهم اياها لهو عين الخطل والخطر فلندع الاطفال ينفردون بانفسهم ويخلون بما حولهم ويصرفون

قواهم ويجولون فيما بين يديهم من الأشياء ليتعرفوا السلطة ويذوقوا طعم الامارة ويشعروا من نشأتهم بالتبعة التى هى دائماً قرينة الرياسة ولازمة لها

(٢) حدث فى المدرسة مرة اضطراب أفضى الى ابعاد بعض الطلبة فقام تومس نخطب فيهم خطبة شهيرة سُجلت له فى تاريخ التربية قال :

ليس من الضرورى أن يوجد بالمدرسة ٤٠٠ طالب ولا مائة ولاخمسون ولكن من الضرورى الا يوجد بها الاسادة مهذبون Gentlemen

فكانت خطبته هذه على قصرها برهاناً صريحاً على فساد الرأى السائد إذ ذاك فى فرنسا وانجلترا القائل بان المدارس تصلح الطبائع الفاسدة وهو رأى عقيم لانه يجعل المدرسة ملجأ لاصلاح الفاسد وتقويم المعوج أو يجعلها بؤرة عفنة فى نظر الأخيار الصحاح من الطلاب

وكان هذا الرأى فاشياً الى حدّ ان آباء الطلبة كانوا يعتقدون انه ليس للمدرسة حق فى طرد ابنائهم منها إلاّ إذا

ارتكبوا أغلاطاً جسيمة أما تومس فكان لا يرى رأيهم وقد كتب العبارة الآتية :

إن أول واجب على كل ناظر مدرسة أن يتخلص من الطبائع العقيمة

قال يتخلص (to get rid) ولم يقل يطرد أو ينفى واستعمل كلمة الطبائع العقيمة (unpromising) تنبيهاً على أنه ليس من الضرورى أن يرتكب الطالب هفوة ليبعد عن المدرسة بل يكفى أن يظهر من اختبار غرائزه أن وجوده فى المدرسة لا يفيده وقد يضر غيره بالاحتكاك والمخالطة

ولذلك كان تومس اذا ظهرت له أعراض تلك الطبائع يكتب رجاء الى والد الطالب أن يسحب ولده من المدرسة والذى يتأمل كلام تومس فى هذا المعنى يرى أنه ينصح باخراج رجال نابغين ولو لم يتجاوزوا الأصابع عداً بدل اخراج عدد عديد من المتوسطين من الرجال أو بعبارة أخرى أنه يفضل اقلية عالية ممتازة عن اكثرية منحطة أو متوسطة

وهذا بعينه هو قانون تنازع البقاء القاضى ببقاء الأصلح

أو الأنسب Natural Selection الذى كان ينادى به دارون و«هوكسلى» فى الأنواع الحيوانية والنباتية

يريد أرنولد أيضاً أن يطبق هذا القانون على التعليم حتى لا يخرج من المدارس الا النابغون الفضلاء الصالحون للبقاء

(٣) رأيه فى التربية البدنية .

كان يقول ان جثمان الأطفال يجب أن يكون مجالا قوياً لثوران غرائزهم وجولان عقولهم وإن التعجيل عليهم بطلب التحصيل وشحن قرائحهم بمسائل العلوم قد يودى بغضاضتهم ويُطفئ البادرة فيهم ولن يلاقى الأطفال فى حياتهم الأولى وبالا شراً عليهم من سبق عقولهم لابدانهم وغلبتها عليهم ولذلك كان يحرض على الرياضيات الجسمية ويغلو فى الذهاب بها والتعريف بمكانها فكان وهو ناظر لمدرسة Laleham وهى مدرسة خصوصية يرتع ويلعب مع تلاميذه الصغار ويخرج معهم يترامون جميعاً بكرات الثلج ويسبحون فى الماء ويتسابقون بالجدف فى الزوارق

وكذلك كان لما عين ناظراً لمدرسة Rugby من أكبر همه أن يأخذ التلاميذ بالرياضة أخذاً ويأمرهم بها أمراً لا يألو جهداً ولا يدخر وسعاً لانه كان يشعر جيدا بأن كل طفل سيأتى عليه وقت يجتاز فيه لجةً من سورة الشباب وعاصفة من جنون الصبا تثب عليه فيه الغرائز الرديئة والشهوات الحيوانية ولن يصبر لهذه الحملة الا بنجدة من قوته ومنعة من بدنه

ان العقل بنموه وتسلط نزعاته وتفرق خواطره يحتاج كالبخار الى أديم منيع وجسدمتين يحمل ضغطته ويقاوم تسلطه

هنا يجب ان أقول إنه عرضت لى اثناء اشتغالى بتنسيق هذه المحاضرة حاجة الى التمثل ببيت أبى الطيب المتنبى :

واذا كانت النفوس كباراً تعبت فى مرادها الاجسام

كان تومس ارنولد يقول إنى أريد ان أجعل من الطفل رجلا من الوجهتين البدنية والخلقية وهو لا يزال فى طور الطفولة حتى يصبر لهجوم تلك الغرائز وينتصر عليها لذلك ترى الفتيان الانجليز يبلغون منتهى نمو الجسم وهم فى سن الثامنة أو التاسعة عشرة مع ان النمو الطبيعى للجسم لا يتم عادة الاّ فى سن الثلاثين فكان كل هم ارنولد فى المدارس الثانوية

الاسراع فى أن يربى للطفل عضلات قوية وجسما متيناً ليضع فيه نفساً بسيطة جريئة حرة مستقلة معتمدة على ذاتها ومجموع تلك الصفات هو ما كان يسميه بالرجولة الصحيحة (True Manliness) وكان يقول ان غرس بذور تلك الصفات فى نفوس الأطفال من حداثة سنهم خير من محاولة وضع معلومات علمية فى تلك الأدمغـة الصغيرة تنسى بسرعة لأنها وضعت فيها قبل الأوان

والرجل الذى هذه آراؤه فى التربية البدنية كان عضواً فى جمعية الرياضة البدنية المسيحية (Muscular Christians) وكان الغرض الذى ترمى اليه هذه الجمعية خدمة الجسم وتقويته إلى أقصى حد مستطاع لا للتباهى به أو استخدامه فى قضاء مآرب شخصية كما كان الحال فى الجمعيات الأخرى بل لغرض أسمى وأرفع وهو

حمايةُ الضعيف ونصرة العدل فى العالم أجمع وفتح الدنيا ووراثة الأرض ومن عليها وكانوا يقولون :

انا نريد ان ننصب أنفسنا لخير الانسانية ابتغاء مرضاة

الله فأول ما نفرضه على انفسنا ان نكون أقوياء السواعد أعزاء الجانب

ومن وصايا توم براون لإخوانه :

يأيها الشبان اتقوا الله وسيروا سيراً عنيفاً ولا تتعرضوا للمرض فان فى المرض مضيعةً للوقت والوقت من ذهب والسير السريع يقوى البدن ويشفى كثيراً من الأمراض

شكا عَمْرو بن معدى كرب المَعَص إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : كذب[1] عليك العسل[2] أى عليك بسرعة المشى والمَعَصُ التواء فى عصب الرِّجل

أما آية الانجيل «مُدَّ خدك الأيمن لمن يلطمك على خدك الأيسر » فقد نسختها آية أخرى أصبحت شعاراً للأمة الانجليزية وهى :

فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم وتعلموا الملاكمة فقد تحتاجون اليها يوماً (على انها

---

(١) كذب هنا بمعنى وجب (٢) والعسل سرعة المشى من عسلان الذئب

الطريقة المستعملة فى فض ما عساه ينشأ من الخلاف بين الفتيان الانكليز)

أما المبارزة فاجتنبوها ما استطعتم إلى ذلك سبيلاً ولكن إذا دعيتَ اليها وصدفت عنها لفضل دينك فذاك، أو لأن هذا عمل لا تحب الدخول فيه فمقبول، ولكن حذار أن ترفض النزال محتجاً بالدين والحقيقة انك جبان يراع فهذا ليس من الدين ولا من الشرف فى شيء

واذا وضعت قدمك فى الحرب فسر فيها إلى النهاية ولا تدع بلاء إلا أبليته فى خصمك ولا حيلة الاّ احتلت بها له

ولا تقلعن عنه وفيك عرق ينبض ونفس يتردد

ولقد أراد تومس ارنولد برأيه فى التربية البدنية وإثارة الناس إلى العمل بمذهبه فيها أن ينتاش الأمة الانجليزية من حال سيئة كانوا عليها إذ كانوا إلى سنة ١٨٢٠ منهومين بالطعام والشراب مسرفين فى الإخلاد إلى الراحة والسكينة سماناً غلاظاً عرضة للسكتات القلبية، والرسوم والتاريخ أعدل شاهد

ظلت أفكار تومس تختمر فى رؤوس الانجليز رويداً حتى هبوا من سباتهم وأفاقوا من رقدتهم وما جاءت سنة ١٨٦٠ حتى دانوا بالتربية البدنية وأُغرِموا بحب الألعاب والرياضات واشتدوا فى ذلك اشتداداً لم يسبق له مثيل إذ آنَسوا من فرنسا يومئذٍ أهبة واستعداداً ظنوا معهما ان الحرب بينهما واقعة لا محالة

فقام هربرت سبنسر ووضع قدمه فى الميدان. وجهر بأعلى صوتهِ أنهُ يجب على الإنسان أن يكون حيواناً قوياً إذا شاء أن يكون حليف النجاح فى هذه الحياة . وان الأمة التى تريد أن تتبوأ مقعد صدق بين الأمم الراقية يجب أن تتألف من رجال كالحيوان أو أشد منهُ قوة . وأن الاحتفاظ بالعافية . والحرص على السلامة من العلة فريضة محتمة وقضية مسلمة . وما هو إلا ذاك حتى سار على أثره العلماء والحكماء والأطباء والفلاسفة ضاربين على هذه النغمة . قائلين بهذه السنة. ناصحين للجميع باعتناق الرياضة البدنية ، والعناية بالصحة ، والأخذ بأسباب القوة من الحداثة إلى الكهولة ، وفى الحلّ والرّحلة وفى

كل مكان ، ولكل أحد . وقد قال الدكتور كليمان ديوكس إن قوة الأمم واقتدار أفرادها على العمل يتوقفان على صحة أبدانهم . واطراد تمرينهم على الرياضات الجسمية . ومراس الأعمال البدنيه . فثارت الأمة بأسرها وفى طليعتها طلبة المدارس والجامعات والأعيان . وانشئت الحمامات فى البيوت والمدارس والأسواق العامة واختُطّتْ حقول واسعة ملاعب للتنس والكريكت . وغطى سطح البحر بزوارق السباق وملئت الشوارع بفرق الكشافة والمتطوعين ووطد كل النفس على العمل على تربية عضلاته والفرار من السِّمَن فراره من الموت ومحاربته محاربة الوباء . وقد جعلوا هذه الألعاب الرياضية كمدارس منظمة يتعلم فيها الأطفال الرزانة والثبات . والنظر الصحيح إلى الأشياء . وقوة الحكم عليها . وتُقَوِّم سجية الاحترام فيهم . وان فى طاعتهم لرئيسهم (الكابتن) عن خِيَرَةٍ من أمرهم . ورغبة من أنفسهم لدليلاً على تقديرهم السلطانَ المخوَّل للأقوى . والرياسة الممنوحة للأكثر تجربة وخبرة . وتكون تلك الألعاب فى الهواء الطلق . فى مجالى

الطبيعة . فى الأغوار والانجاد بين الأنهار المطردة. والأطيار المغردة . وبذلك الجهد البدنى القوى يطهر الجسد من السموم المتخلفة من الحياة الجلوسية . ويصلح الدم الذى أفسده هواء المدينة . أضف إلى هذا أنها محت من طباعهم كل ميل إلى الإسراف فى الأكل والشرب ، ولا صحة مطلقاً لما قد يتوهم البعض من أنهم يأكلون أكثر من غيرهم فان ما يأكله الانكليزى فى اليوم على دفعات يأكله المبطنون منا فى دفعة واحدة

سأل عبد الملك بن مروان أبا المغور هلا اتخمت قط قال لا قال فكيف ذلك قال لأننا اذا طبخنا أنضجنا واذا مضغنا دققنا ولا نكظ المعدة ولا نخليها

تلك هى الفضائل التى يجنيها الانجليزى من الألعاب يتعوّدها فى المدرسة من صباه . وتلازمه لزام الظل مدى الحياة . وأثر هذه الألعاب فى الأخلاق على النمط السابق ظاهر لا ينكر . قال به جميع المربين الانجليز بلا استثناء . وتواصوا به ، وأغروا الناس باتباعه ، حتى سرى حب هذه الألعاب فى

دمائهم. وتمكن من نفوسهم لا يثنون صدورهم عنها من كِبْرة ولا يذرونها من عمى. وهذا مستر فوست Fawcett فى أخرياته قد ذهبت عيناه وكان مع ذلك يتزلج ويركب الخيل. وأنتونى ترولوب وقد لوت الشيخوخة من عوده كان يحضر جواده ليصطاد الثعالب. ويعرف كل انجليزى ما كان من أمر بلمرستون وكلفه بالذهاب الى ميدان سباق ابسوم (Epsom) إذ كانوا يرفعونه الى ظهر فرسه بجهد وتعب. فاذا استوى عليه نسى شيخوخته وملك عِنانه. وأمِن حِرانه

اذا أنا أطنبت فى الرياضة البدنية واهتمام الانجليز بها ذلك الاهتمام وإعظامهم اياها ذلك الإعظام وأخذهم بها من المهد الى اللحد فلقد كانت من أهم العوامل فى نهوضهم وتطورهم ذلك التطور الذى أدهش العالم بأسره

قال مسيو Pierre de Coubertin :

« ما كان الانجليز من مائة سنة خلت بل ولا من ستين على ما نراهم عليه الآن من شدة تمسكهم بعاداتهم ونشاطهم فى الخارج وسهولة انقيادهم الى حكامهم وتفانيهم فى حب وطنهم

ولكنهم هبّوا من رقدتهم ونشطوا من عقالهم وقطعوا كل صلة بالماضى وبنَوا لأنفسهم ذلك البناء الشامخ وهذا المجد الطريف الذى لم يشهد العالم مثله ولا ريب عندى فى أن للتربية الصحية المؤسسة على الرياضة البدنية الى أقصى حد مستطاع وللحرية الحقيقية التامة دخلاً كبيراً فى هذا الانقلاب العجيب »

ذلك وأما الفرنسيون فكانوا يسخرون من هذه الرياضيات الجسمية . ويعتقدون أن العناية بانماء جسوم الأطفال وتعهد الأبدان بالتقوية مفسدة للأطفال أى مفسدة إذ يقولون إن المادة هي مَعين الشر وعتَاد الفساد . وأن صفاء البصيرة وبلوغ الأرواح درجاتها من الكمال انما يكون باهمال الجسم وكسر شرته . وإضعاف حيوانيته وقد غلا بسكال أحد فلاسفتهم فى مذهب المتصوفة الى حد أنه كان يلبس شعاراً من شعر خشن كرءوس الابر على جلده خيفة أن يخدعه الترف أو تلهيه الراحة . وأكثر من ذلك أنه كان يشد على وسطه نطاقاً من مسامير دقيقة خيفة أن يشعر بلذة التوفيق الى

استنباط حل قضية من الهندسة وكان بها مولعاً . وعليها مكباً .

فكان مذهبهم فى قول القائل

أقبل على النفس واستكمل فضائلها

فأنت بالنفس لا بالجسم انسان

ولم يُقلع الفرنسيون عن احتقار الرياضة البدنية والزراية على من كان يحبها من التلاميذ الا من عهد غير بعيد

مذهبه فى التربية

لندع الآن ضرب الأمثلة . وسرد الحوادث المختلفة . الى البحث فى الخطة العامة التى جعلها تومس ارنولد أساساً لمذهبه فى التربية فنقول :

كانت المدرسة فى نظر ذلك المربى العالم كدار كبيرة من دور القضاء يتدافع فيها سيلان من القوة الهادية إلى الخير الصادرة عن قضاة هذه الحكومة وهم الناظر والمدرسون ومن المقاوَمة العشواء من التلاميذ الذين يرادون على الإنابة الى القانون والمضى فى سواء السبيل . وكانت الحكمة والحيطة والبلاء الحسن الذى يبذله أولئك المدرسون هى القوة التى يجب أن تكون لها الغلبة لتحسن الحال . وتلين شكيمة الأطفال . ومن أجل ذلك

كان من الـكياسة منح نصيب صالح من هذه القوة للجهة التى تنشأ منها المقاومة بتسليط عدة من زعمائها وامكانهم بقدَر من الحكم تأليفاً لهم واستظهاراً بهم على من عداهم من الأطفال

وذلك بعينه هو أحد مظاهر المبدأ الانجليزى العام الذى يمكن تصويره فى مثل آخر . وهو أنهُ لضمان النجاح فى تقرير حال على ما هى عليه . أو المحافظة على سلامة نظام قائم فى نفسه . لا بد من إغراء الناس به وحملهم عليهِ وتزيينه فى أعينهم حتى يكون فتنةً لهم ويكونوا هم حماة له . وشيعةً على المتنكبين عنه : وقد كان الرجاء فى تطبيق مبدأ اجتماعى كهذا على جماعة من الأطفال غير كبير لما لا يخفى على الذين مارسوا التعليم وخبروا غرائز الأطفال وسبروا خفّة أحلام الشباب . غير أن تومس أرنولد لم يُحجم لحظة عن العمل بذلك المبدأ فى مدرسته . وهى جرُأة لن يُقدم عليها إلاَّ من عظمت ثِقتَه بعلمِهِ وعمله وقوىَ اعتماده على نفسـه ومقدِرته . وقد نجح تومس فى ذلك نجاحاً باهراً فوضع الثقة فى المدرسين والمتقدمين من التلاميذ فى الفرقة السادسة واقامة المدرسين أوصياء على التلاميذ وعهد إلى كل واحد منهم مراقبة زمرة من التلاميذ

الخارجية . ورياسة بيت من بيوت الداخلية الملحقة بالمدرسة (Boarding Houses) لا تكاد عدتهم تجاوز الثلاثين. يسكنون معه فى داره ويأكلون على مائدته ويظلون فى وصايته سبعَ سنين يدرس فيها طباعهم . ويسبر غور خواطرهم فيرشد عقولهم إلى الصواب ويهدى قلوبهم إلى الخير . حتى يصل بهم إلى أقصى ما يستطاع من الرقى والكمال. وقد كان التلاميذ الداخلية من قبل فى عُهدة أناس مُقاوَلين ليسوا من أمور التربية فى شىء فوضعوا الكسب المادى نصب أعينهم وتركوا حبل التلاميذ على غاربهم فيما هو من التهذيب والتعليم حتى ساءت الحال واضطرب النظام وانحط مستوى الأخلاق وقد خول تومس تلاميذ الفرقة السادسة سلطة تامة على تلاميذ الفرق الأخرى وعينهم معيدين ومن أفضل عملهم مساعدة المدرسة على حفظ النظام وتوصيل المبادئ القويمة إلى إخوانهم لأنهُ لم يكن يرى رأى معاصريه فى ترك الأطفال يستقلون بأمورهم إلى حدّ أنهم يواجهون الحوادث بأنفسهم ويتصرفون فيها وحدهم خيفة أن تفسُدَ مبادئُهُمْ وتَهجُن عاداتهم وهم فى هذه السن قلما يميزون بين النافع والضار والحسن والقبيح .

ولذلك جعل المتقدمين منهم وسطاء بينهم وبين المدرسين ينقلون اليهم التعاليم الصحيحة وينشرون فيهم المبادئ العالية ويحببون اليهم الأخلاق الفاضلة ويكونون هم البادئين بالعمل بها والقائلين لاخوانهم هلمَّ إلى تقليدنا والنسج على منوالنا

كان تومس يقول إن مثل هؤلاء المساعدين كمثل ضباط الجيوش البرية والبحرية إذا وثقتُ منهم فليس فى انكلترا وظيفة أوثرها على وظيفتى وإذا لم أثق بمعونتهم فالاستقالة محتمة . ويخيل لى وأنا أنقل هذا عنه انى أمام رئيس حكومة يتكلم عن وزرائه وكذلك كان تومس يكثر الاجتماع بهم ويدعوهم إلى شرب الشاى معه يخوض فى الحديث معهم ويحاسبهم على الفعلة من أفعالهم والكلمة تخرج من أفواههم . فكانت هذه الاجتماعات مدرسة ثانية للتفكير فى الحياة والاستقلال فى الرأى والتقدير للعاقبة مع احترام المبادىء المرسومة والقواعد المقررة . وكان الغرض الذى يرمى اليه تومس من وراء ذلك هو تعويد التلاميذ حكمَ أنفسهم من حداثة أسنانهم على قواعد العدل والتروى والحكمة . لأنهم بعد المدرسة سيقلدون المناصب ويتسلمون زمام الأحكام إذ

كانوا من أبناء العِلْية وأهل الولاية

وكان لهم عدا ذلك اجتماعات أخرى فى المدرسة يمرنون فيها على الخطابة (Debating Societies) والخوض فى فنون شتى من القول على ما يتراءى لهم من سياسة ومن أدب وتاريخ وإذا كانت الخطابة فى شأن سياسى أخذ الاجتماع صورة مجلس نيابى صغير تجرى المناقشة فيه على التقاليد والرسوم النيابية ويتنادون فيما بينهم بنائب مقاطعة كذا وحضرة العضو المحترم كما يفعل النواب الكبار والوزراء يجعلون ذلك ذريعة لدراسة بلادهم ومعرفة مواقع أملاكهم . فقد كان المتكلم منهم عن اقليم مّا يجب عليه أن يلم إلماماً بأحوال ذلك الاقليم تجارية كانت أو اقتصادية أو صناعية أو زراعية أو غيرها . وكان الوزراء منهم يجلسون أمام المعارضين الذين كثيرا ما كانوا يسقطونهم وكان رئيس الوزراء هو الذى يفتتح المجلس وهو الذى يعلن انفضاضه

حدَّث مسيو دى هبنر (M. de Hubner) النمسوى أن حرية المناقشة فى تلك المجالس كانت بالغة غايتها حتى فى غير انجلترا من البلاد التابعة لها . قال دخلت مرة احدى الكليات

الهندية والطلاب يتناقشون فى حفلة من هذه الحفلات فى موضوع غريب وهو : أليس الأفضل للهند أن تتخلص من النير الانجليزى وكان المشرفون عليهم من الأساتذة الانجليز ومع ذلك لم يقم منهم من ينكر ذلك القول

يقول دى كوبرتين الفرنسى إننا معشر الفرنسيين لا نستطيع أن نسمح لطلابنا بمثل هذه الحرية لأن اختلاف الرأى عندنا يؤدى الى شحناء قد تسوء عاقبتها أما عند الانجليز فمجالس الخطابات بينهم هى بساط يطوى بما فيه . ولقد يكون الرجل من حزب وابنه من حزب معارض له وليس لهذا الخلاف أقل أثر فى رابطة الاسرة التى بينهما

وانّى لأرى أنّ تفوّق الانكليزىّ فى هذا المضمار يرجع الفضل فيه إلي كثرة المِرانة وطول المِراس فقد أخذوا أنفسهم بحرّيّة المناقشة منذ نعومة أظفارهم فصارت لهم عادة راسخة فى كلّ اطوار حياتهم وصارت صدورهم رحبة لقبولها بدون أن تؤثّر فيها أو تنال منها فلقد يتّسع مجال الجدال بين اثنين منهم يتباعد آراؤهما ويختلف مذاهبهما فلا تجد من كلا المتناظرين إلاّ صدراً فسيحاً وأناة طويلة وقبولاً لكل ما يتحرّك به لسان صاحبه

أين نحن من كلا الفريقين فى حرية المناقشة

إذا أحسنَّا الظنّ بأنفسنا قلنا إننا كالفرنسيين فى هذا الموضوع ولكن لا نكذب الحقيقة إذا قلنا إنّنا أشدّ منهم تطرفاً فى تقييد المناقشة وأضيق مجالاً لقبول صراحتها واطلاق العنان لحرّية الرأى فيها ، فانك لتجد المناظرة بيننا مطوّقة بأغلال المجاملة أعناقُها، مغلولةً بقيود الاحتراس أيديها، فان يداً لأحد المتناظرين أو لكليهما أن يفكّا عنهما رِبقَةَ تلك المجاملة ويُطلقا أنفسهما من قيود كتمان الرأى الصريح والافضاء بالفكر الحر فقلما تنتهى مناقشتهما بسلام وما ذاك الاَّ أننا لم نعوّد أنفسَنا الصراحةَ الكاشفةَ فى المجادلة ، ولم نأخذها بالتمكّن من معرفة أساليب المناقشة وآداب البحث والمناظرة

وجدير بمن يريدون أن يتبوَّءوا مراكز الرياسة ويضعوا أنفسهم من الناس موضع الزّعامة أن تتّسع صدورهم للمناقشة وتطيب نفوسهم لسماع الانتقاد والاصغاء إلى ما قد يخالف آراءهم ليَستَشِفّوا بواطنَ الصدور ويخترقوا حُجُبَ الضمائر ويقفوا على ما تنطوى عليه قلوب النّاس من مختلف الآراء

وشتّى المذاهب، ويعرفوا أنّ الألسنة ترجمان الأفئدة فلا ينبغي أن يعقلوها ، وأنّ الصدور هي مقرّ الحرية فلا يضيّقوا ما فسحه الله منها ، فاذا نحن أغلقنا صدورنا دون قبول ما تأتي به صراحة المباحثة وحرّية المناقشة فقد جنينا على الحرّية جنايةً لا غفران لها

ولقد كان لنا في خِيْرة سلفنا أُسْوة حسنة وقُدْوة صالحة لمن كان يريد سَعة الصدر واطلاقَ حرّية الفكر ورياضةَ النفس على اذعانها لذلك ، وأن بين دَفّات كتب التاريخ والآداب العربيّة لأمثلة راقية لما كان يصدر عن الخلفاء والملوك وقادة الأمّة من حلم لا تُحَلّ حَبْوَته، وأناةٍ لا تخشى بادرتها، فانطلقت الألسنة من العقال ونطقت بما شاءت من المقال وانتصرت الحرّية الفكريّة وانتشرت الشجاعة الأدبية ، فلقد كان لهؤلاء السادة نضر الله وجوههم مقامات حسان وأنديةٌ ينتابها القول والفعل ومجالس يشفَى بأحلامها الجهل يسمعون بها العظات ممّن لا يُؤْبَهُ له وتُصْغي أسماعهم إلى مرّ الانتقاد وشديد الجدال ممن قد يكون ضعيف المُنّة ليس له من الأمر شيء .

ولقد كان من هؤلاء الملوك من لو شاء لبرى الرقاب وأطار

الهامات عن الأعناق بكلمة تلفظها شفتاه فيجرى بها قلم القضاء ولكنهم كانوا أرحبَ صدراً وأرق فكراً ان يدفنوا الآراء فى الصدور وأن يئدوا حرّيّة المناقشة وهم مطالبون باستحيائها

ومما يؤثر عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنهُ فى رياضته نفسه وكبحِهِ جماحها أنه نادى : الصلاة جامعة. ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال : أيها الناس لقد رأيتُنى أرعى غنماً لخالات لى فكنّ يقبضن لى القبضة من التمر فأظلّ اليوم وأىّ يوم . فقال له عبد الرحمن بن عوف : والله يا أمير المؤمنين ما زِدْتَ على أن قصرت بنفسك . فقال : ويحك يابن عوف ، انى خلوت فحدثتنى نفسى فقالت : أنت أمير المؤمنين فمن ذا أفضل منك فأردت أن أعرفها قدرها

أما أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان فقد ضربت بحلمه الأمثال ولهجت بحسن سياسته الألسنة ولقد أحاطت به مدّةَ خلافته أحوالٌ وحوادث لولا حسن دهائه وسياسته وطول أناته وحلمه لما أتيح له أن يبقى زعيمَ أمّةَ يعلم أن فيها من لا تقر عينه بخلافته ولقد حذا حذوه فى ذلك كثير ممن خلفه من بنى أميّة وبنى العبّاس أخذوا بيد الحقّ وشدوا أزره

وقاموا بنصرة المجادلة والبقاء على حرّية المناقشة غيرَ مفتونين برأيهم ولا راكبين لهواهم رءوسهم، فرأى الناس فى أيامهم مجال القول ذا سعة فقالوا، وميدانَ حرّية الآراء فسيحاً فجالوا، فما كتموا عظة ولا أغضوا العين على قذى فأفادوا واستفادوا

خرج الزُّهرىُّ من عند هشام بن عبد الملك فقال : ما رأيت كاليوم ولا سمعت كأربع كلمات تكلَّم بهنّ رجل عند هشام دخل عليه فقال : يا أمير المؤمنين احفظ عنّى أربع كلمات فيهنّ صلاح ملكك واستقامة رعيَّتك ؛ قال ما هنَّ : قال لا تَعد عدة لا تثق من نفسك بانجازها ، ولا يغرّنّك المرتقى وان كان سهلاً إذا كان المنحدر وعرا ، واعلم أنَّ للأعمال جزاءً فاتّق العواقب ، وأنَّ للأمور بغتاتٍ فكن على حذر. قال عيسى بن دَأب فحدّثت بهذا الحديث الخليفة المهدىّ وفى يده لقمة قد رفعها إلى فيه فأمسكها وقال ويحك ! أعد علىّ ، فقلت : يا أمير المؤمنين أسغ لقمتك فقال : حديثك أشهى الىَّ

فحقّ لنا أن نقتدى بهؤلاء وأمثالهم ممّن أيّدوا حرّية المناقشة وبسطوا ألسنة الناس فى صراحة القول والمباحثة أولئك الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله

وأولئك هم أولوا الألباب

ولعمر الحق إن ذلك منهم لدليل على عقل راجح وعلم غزير فان المرء لا يفسح صدره لسماع رأى غيره الاّ إذا هذب العلم نفسه ولطف من طباعه

وما أحكم الفيلسوف الفرنسى مونتين (Montaigne) فى قوله « ان مثل الناس فى ازدياد تواضعهم ولين جانبهم كلما ازداد علمهم مثلُ سنابل القمح تظهر فى أول أمرها وهى خِلوٌ من الحب شامخة متعالية حتى إذا امتلأ جوفها وتم نُضْجها احدودبت سيقانها وانحنت رءوسها »

وكان تومس يقوّم التلاميذ بالتقريب والملاينة، يحترم رأيهم وكلامهم؛ ولم يشك فى قول صغير ولا كبير منهم كى لا يثلِم كرامته أو يكْسِر شِرّته. ولم يعوز أحداً إلى حجة على قول أو شاهد على عمل فعنده قولهم صدق وعملهم حق ورأيهم محترم، وكِفاء هذه الثقة كان لا يطلب منهم الاّ الصراحة فى القول واحترام الحق. وتقديس الحقيقة. وقد شاع فى المدرسة كلها وطار فى أنحاء المدينة ان اكبر جرم يقترفه التلميذ فى رجبى (Rugby) هو الكذب على ارنولد وجزاء من يفعل ذلك

أن يفصل أبداً عن المدرسة [١] وقد نقش تومس فى أذهان الأجيال التى رباها شناعة الكذب وقبحه نقشاً لا يمحوه كر الغداة ولا مر العشى . وقد سرى مبدؤه هذا وهو (ابتياع الصدق بالثقة) على سهولته سريان الكهرباء فى السلك . فعم الأسر والأندية . وأسلم له الانجليز فى كل مكان وآمنوا بأنه أنجع دواء لاستئصال الكذب من النفوس . فأقبلوا على أولادهم من نعومة أظفارهم يغرسون فى قلوبهم حب الحق واحترام الحقيقة حتى امتزجت الصراحة بدمائهم وسرى الصدق فى عروقهم . وان أعظم سَوْءَةٍ يُراعُ لها الانجليزى ويقشعر منها بدنه لهى وصفك اياه بالكذاب « Liar » ولا غرابة فى عِيافِ القوم مَعَرَّةَ الكذب وغسلهم أنفسهم من دنسه فهو يودى بحياة الأمم كما يودى بحياة الأفراد

وهذه آثار سلفنا الصالح تفيض بالبراءة من ذلك الخلق

---

(١) ان فكرة تومس ارنولد فى ان المدرسة ينبغى ان تكون أشبه بحكومة غير مركزية (أو لامركزية كما يقولون) Gouvernement décentralisé تتوزع السلطة فيها على اكثر من فرد واحد غير انه من الضرورى ان يشعر التلاميذ بوجود الوازع الاكبر الذى يرونه من حين الى آخر يشرف عليهم ويتفقد حالهم دون أن يكثر من التداخل فى أمورهم تذكرني بقول العامة (هوب بعصا العز ولا تضرب بها) وقول النبي صلى الله عليه وسلم علق سوطك حيث يراه اهلك

(الكذب) . والتَّمدح بالصدق والصراحة والمباهاة بهما والتعلق بأسبابهما ، فهذا دُريد بن الصّمة على جاهليته فى مرثيته المشهورة لأخيه عبد الله يُعزى نفسه عنه بقوله

وهوّنَ وجدى أننى لم أقل له
كذبتَ ولم أبخل بما ملكت يدى

وتلك أحاديث الخلفاء وأخبار الوفود ومقامات الأعراب بين أيدى الملوك تنطق بحكمة ألسنتهم والصدق فى قولهم وفعلهم والصراحة البالغة فى حديثهم

روى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قال لعبد الله بن عباس رضى الله عنهما من ترى أن نوليه حمص . فقال رجلاً صحيحاً منك صحيحاً لك . قال تكون أنت ذلك الرجل قال لا تنتفعُ بى مع سوء ظنى بك وسوء ظنك بى . هذه صراحة رجل واليكم صراحة امرأة

حج معاوية بعد عام الجماعة فسأل عن امرأة من بنى كنانة كانت تنزل بالحجون يقال لها الدارِميّة الحجونية فأخبر بسلامتها فبعث اليها فلما جاءت قال أتدرين لم بعثت إليكِ ؟ قالت لا يعلم الغيب إلاّ الله. قال بعثت إليكِ لأسألك علامَ

أحببت علياً وأبغضتني وواليته وعاديتني. قالت أو تعفيني قال لا أعفيك . قالت أمّا إذ أبيت فاني أحببت علياً على عدله في الرعية وقسمه بالسوية وأبغضتكَ على قتال من هو أولى منك بالأمر، وطلبتك ما ليس لك بحق، وواليتُ علياً على ما عقدله رسول الله من الولاء وحبه المساكين واعظامه لأهل الدين . وعاديتُك على سفك الدماء وجورك في القضا وحكمك بالهوى. قال هل رأيتِ علياً . قالت إي والله قال فكيف رأيته قالت رأيته والله لم يفتنه الملك الذي فتنك . ولم تشغله النعمة التي شغلتك قال فهل لك من حاجة . قالت أوَ تفعل إذا سألتك . قال نعم . قالت تعطيني مائة ناقة حمراء فيها فحلها وراعيها . قال تصنعين بها ماذا . قالت أغذو بألبانها الصغار ، واستحيي بها الكبار واكتسب بها المكارم وأُصلح بها بين العشائر، قال فان أعطيتك ذلك فهل أحِلّ عندك محلّ على بن أبي طالب قالت سبحان الله أوَ دونه فأنشأ معاوية يقول :

اذا لم أعُد بالحلم مني عليكم   فمن ذا الذي بعدي يؤمل للحلم

خذيها هنيئاً واذكري فعل ماجد

جزاكِ على حرب العداوة بالسلم

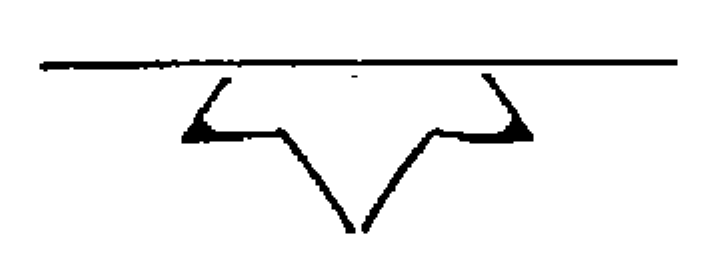
ثم قال أما والله لو كان على حيًّا ما أعطاكِ منها شيئاً
قالت لا والله ولا وبرة واحدة من مال المسلمين

ذاك حديث امرأة تساق اليها الدنيا عفواً ويكال لها المال كيلاً لتنزل عن رأيها أو تغير اعتقادها فلم تفعل

والشواهد اكثر من أن تذكر على ما كان لهذا السلف الصالح من علو النفس وكرم الأخلاق والتمسك بالمبادىء والدفاع عن الحق والنفرة الشديدة من التَّملق للقوة وما منا إلاَّ من يعرف ذلك ولكن ليس فى معرفة الفضائل كفاية بل الكفاية أن يعمل بها إلى النهاية

شكوتُ وما الشكوى لمثلى عادة
ولكن تفيض الكأس عند امتلائها

تلك هى كلمتنا عن التربية فى انجلترا والدعائم الكبرى التى يقوم عليها صرحها وقد رأينا ان نشفعها بكلمة عن التربية فى امريكا لما بينهما من تشابه فى الطريقة واتحاد فى الوجهة



التربية في امريكا

المحاضرة الاولى

تمهيد

حضرة صاحب المعالى وزير المعارف — سيداتى وسادتى

أبدأ بتقديم الشكر الجزيل لحضراتكم لتلبيتكم دعوة النقابة وتفضلكم بالحضور لاستماع محاضراتها ففى ذلك دليل ظاهر على عطفكم ومعاونتكم لها على المضى فيما اختطته لنفسها من القيام على حركة التربية والتعليم فى البلاد لعلمكم أن ليس للامة ان ترقى حتي تسلك هذا السبيل وان مصر الفتية الناهضة لا بد لها أن تسير إلى الامام وأن تحتذى فى سيرها مثال الأمم الراقية التى لم تصل إلى ما وصلت اليه من عظمة ومنعة إلا بعد أن بذلت جهوداً وتجشمت صعاباً وذاقت آلاماً تنوء بها الجبال

أما الأمم التى لم تمرن طويلا على عراك الدهر ولم تألف مقاومة الصعاب وتذليلها فسريعة العطب والفناء لأن عدم

استكمال تربيتها فى ميدان الجهاد والمقاومة يجعلها عاجزة عن دفع عوادى الأيام وطوارئ الحدثان

وما حياة الافراد والامم إلا جهاد دائم . لذلك كان حقاً على المدرسة أن تهيئ النابتة لهذه الحياه وأن تُعدَّهم بالاساليب الحكيمة لكى يضعوا قدمهم ثابتة فى المعترك ولكى يصبروا ويتجلدوا ويقاوموا حتى يغلبوا ويفوزوا

فكل تربية لا ترمى إلى هذه الغاية السامية هى والعدم سواء لانها لا تطابق طبيعة الوجود فى شىء وكذلك كل تعليم لا يعد النشء بوسائل الكفاح فى ميدان الحياة العملية الحقة إنما هو تعليم عقيم لا خير فيه

ان نقابة المعلمين بمثابرتها على القاء المحاضرات وعقد المؤتمرات فى شئون التربية انما تؤدى واجباً عليها نحو العلم الذى هى أمينة عليه ورافعة رايته باليمين إذ تفتح للاصلاح العام باباً وتمهد للرقى طريقاً وهى باذن الله ماضية فى هذا السبيل بفضل اتحاد أبنائها وبفضل تضامنهم ونشاطهم وغيرتهم على المصلحة العملية تخدمها فى غرضها النبيل صحيفتها التى تنم عن حسن سعيهم وتنشر مباحثهم على الناس

وبعد فقد كنت يوماً أجيل النظر فى الكتب الجديدة باحدى المكتبات العامة فلفتنى عنوان ضخم لكتاب « روح التربية » وما كان هـذا العنوان ليستهوينى وحده الى اقتنائه لولا انى أبصرت اسم مؤلفه الكاتب الجهبذ الدكتور جستاف لبون الذى نوه كما تعلمون بحضارة العرب وشاد بذكرهم فى كتابه الذائع الصيت « تاريخ حضارة العرب » والذى ترجم له المرحوم فتحى باشا زغلول كتاب روح الاجتماع

أما السفر الذى نحن بصدده اليوم فتمتاز الطبعة الاخيرة منه بفصل ممتع فى طرق التربية والتعليم فى أمريكا نقله عن كتاب مسيو بويز ناظر مدرسة شارلروا من أعمال بلجيكا الذى ساح فى أمريكا أخيراً وشرح طرق التربيـة والتعليم فيها شرحاً كان له أعظم وقع فى نفوس الامم الاوربية جميعاً .

والذى يتصفح هذا الكتاب يتبين منه البون الشاسع بين حضارة أوربا وحضارة أمريكا وقبل أن يشرح الدكتور جستاف لبون تلك الطرق انحى باللائمة فى الباب الاول من كتابه على تعليم الجامعات فى فرنسا لانه مبنى كله على استظهار

الكتب دون أن يكون للتأمل والتفكير والبحث والتنقيب أثر فيه

أما اساتذة الامريكان فقد نجحوا بأساليبهم الحكيمة فى بث روح الملاحظة فى النشء من بدء حياتهم وفى تنمية قوة الحكم ودقة التصور وصقل أخلاقهم صقلا متينا دون أن يكون للكتب فى كل ذلك شأن يذكر . ثم يقول « نعم ان فى جامعات فرنسا فئة من نوابغ الطلاب حرروا عقولهم من قيود التعليم العقيم فى تلك الجامعات وكوّنوا أنفسهم بأنفسهم وبفضل جهودهم وحدهم بقيت فرنسا الى اليوم متبوئة مكانة علمية بين الأمم ولكن السواد الاعظم من الطلاب لا يزالون يرسفون فى السلاسل والاغلال التى قيدتهم بها الجامعة وسيظلون حياتهم متمسكين بتعاليم أساتذتهم القديمة عاجزين كل العجز عن الخروج عليها أو الانحراف عنها مع أنهم هم الذين تقوم عليهم حضارة الأمة وكان أول واجب على الجامعات أن توجه كل عنايتها الى توسيع معلوماتهم وترقية مداركهم لانهم عصب الامة وملاك حضارتها فكيف ترقى فرنسا اذا ظلت تلك الطبقة الوسطى منها فى أسر الجامعة

لاتجد من يفك عنها الاغلال وينير لها السبيل

ولقد بلغ من تفشى تلك الطرق العقيمة فى التربية والتعليم فى فرنسا أن مدرسة من أرقى مدارسها وهى مدرسة الهندسة (سنترال) التى كان ينبغى أن تكون أبعد المدارس عن الحفظ والتسميع يقنع طلابها من التعليم باستظهار العلوم كلها حتى الرياضيات منها ولكنها لاتلبث أن تزول من عقولهم اذا فرغوا من الامتحان لانها لم تصل الى أذهانهم الا من طريق الحافظة

وهذا المسيو بلتان الذى تربى فى هذه المدرسة وهو الآن يشغل وظيفة مفتش بمصلحة المعادن يقول لنا : « ان التعليم الذى لا وجهة له الا أداء الامتحان يفقد كل ميزة علمية ولا ينمى الا قوة الحافظة ولما كان طالب الهندسة فى بلادنا لاعمل له الا أن يحفظ دروسه من الكتب دون أن يكلف عملا شخصياً يستلزم البحث والتنقيب والابتكار فليس هنالك اذن مقياس صحيح نعتمد عليه فى تقدير قيمته العلمية »

ولهذا نرى المتفوقين فى الامتحانات غالباً هم أمضى الطلبة حفظاً وأوعاهم ذكراً وان كانوا أضعفهم تصوراً وذكاء

ومنهم تختار الحكومة موظفيها لسبقهم فى حلبة الامتحانات وعلى ذلك فالحكومة فى اختيارها الرجال لوظائفها لا تعتمد على صفوة أبنائها من حيث مواهب الفطنة والذكاء

ولقد وقع فى السنوات الأخيرة حادث ببلاد الهند أثبت للانجليز خطأهم فى التعويل على الامتحانات . ذلك ان الجرائد الوطنية تذمرت من طريقة تعيين الموظفين للخدمة الادارية العليا *(civil Service)* واقترحت أن يكون انتخابهم بالامتحان فقبل الانجليز هذا الرأى فكانت النتيجة ان فاز البمبو من أهالى البنغال على الأوربيين فى الامتحانات نظراً لما اشتهروا به من قوة الحافظة وسرعة الاستظهار غير أنهم مالبثوا حين تولوا الحكم ان تجلى فيهم نقص كبير فى الاخلاق وسوء تصرف فى الادارة العامة كادا يقودان الهند إلى الخراب لولا أن الانجليز بادروا بالعدول عن هذه الطريقة إلى أسلوب آخر يحرم البمبو الاستفادة من هذه الميزة الطبيعية بعد أن ثبت لهم ان الامتحانات عاجزة عن كشف المخبوء من أخلاق الممتحنين وذكائهم وان استظهار الكتب وحده لا يؤدى إلى سداد الرأى وبعد النظر فى الأمور ولا يطبع فى النفوس

عاطفة العدل والانصاف

والحقيقة الناصعة ان الوظائف الادارية الكبرى لا تتطلب نبوغاً كبيراً فى العلم ولكنها تتطلب أولاً وقبل كل شىء أخلاقاً متينة كالعدل والقدرة على ضبط النفس فى جميع المواطن

يقول جستاف لبون انه حدث له فى أثناء زيارته للهند ان تعرف بموظف انجليزى كبير كان كثيراً ما يخرج وحده ليلاً إلى الغابات الشاسعة لاصطياد النمور فسأله عن سبب ذلك فقال له إنه كثيراً ما يشعر بضعف فى عزيمته وعجز عن مقاومة نفسه والتغلب عليها فلم يجد علاجاً يعودها الصبر والأناة ورباطة الجأش فى أدق المواطن وأحرج المراكز خيراً من أن يقضى الساعات بل الليالى يرتقب مرور النمر ليقتله عالماً تمام العلم انه إذا أخطأ المرمى ولم يصبه فى مقتله مدة ثلاث الثوانى التى يمر فيها فهو هالك لا محالة

والتاريخ شاهد عدل على ان الأُمم العظيمة لم تقم إلا بالاخلاق القوية وصفات الرجولة الحقة كالتنبه والتفكر والرأى والابتكار والنظام والتضامن والثبات والارادة تلك هى

الصفات الخلقية التي يجب على المربين أن ينشوها في النشء وينموها على الدوام ولن يصلوا إلى هذه الغاية إلا أن يكثروا من وضع التلاميذ في المواطن والظروف التي تحتم عليهم إعمال الفكر والروية قبل الإقدام على اتخاذ قرار حاسم في موضوع من الموضوعات وان يجبروهم بعد أن صحت عزيمتهم على التنفيذ أن يمضوا فيه إلى النهاية

عزم الشاعر الانكليزى « وردسورث » Wordsworth مرة على تسلق جبل للتنزه والرياضة وبينما هو يصعد إذ هبت عاصفة شديدة فاستمر فى الصعود على الرغم من قصف الريح وهو يخاطب نفسه بقوله : « ان العدول عن مشروع قام فى سبيله خطر صغير لهو خطر على الأخلاق كبير » فالمثابرة والارادة هما من أقوم الأخلاق التى تمتاز بها أفراد الامم الراقية

نعود إلى الكلام على العلم المدون فى الكتب Science livresque ذلك العلم الذى ينعاه الدكتور جوستاف لبون على الجامعة . يتساءل ما العمل لتلافى ذلك الخطر الداهم ونحن من ثلاثين عاماً نرى الناس تضج من عيوب هذا التعليم وآثاره السيئة فى البلاد وهؤلاء رجال الجامعة هم أسبق من يعترف بهذه الحقيقة المؤلمة ولكنهم

كلما أرادوا مداواة العلة لا يتوجهون الا إلى المناهج وتنقيحها والحال ان الداء الوبيل كامن فى طرق التعليم لا فى مناهجه

يقول مسيو ليمان وهو من اكبر مديرى الجامعة أمام لجنة التحقيق البرلمانية « ان التعليم عندنا في جميع أنواعه قد هوى إلى قرار سحيق ليس بعده قرار ولا أدل على ذلك من الخدمات الجليلة التى قام بها خريجو جامعات ألمانيا للصناعة وعجز خريجى جامعاتنا عن مجاراتهم فيها

فالمانيا تخرج كل عام عدداً عظيماً من العمال المتنورين الماهرين الذين تحتاج اليهم أوربا وأمريكا فى مصانعهما ومعاملهما

وبينما العلوم والصناعات تنمو على اطراد فى المانيا اذا بها عندنا فى تدهور يزداد يوماً بعد يوم ومرجع هذا التقهقر فى اعتقادى هو أن طرق التربية والتعليم فى فرنسا نقلها اليسوعيون عن بلاد الصين ونبتت فى مدرسة «لويز لوجران» القديمة التى أسسها هؤلاء القساوسة العائدون إلى فرنسا من بلاد الشرق الاقصى ومنها انتشرت فى البلاد كلها ولا تزال هذه الطرق متأصلة إلى اليوم فى نفوس المعلمين مالكة عليهم مشاعرهم جميعاً »

فالعلة اذن انما هي فى وسائل التربية وطرق التعليم لا فى المناهج نفسها بدليل أن المناهج واحدة أو تكاد تكون واحدة فى المانيا وفرنسا ولكن شتان ما بين النتيجتين فالعبرة بالمدرس الكفء لا بالمنهاج الجذاب الخلاب

وعادةُ السيف ان يُزهَى بجوهره

وليس يعمل إلا فى يدى بطل

إن الالمـان أمة فطنت من زمن بعيد إلى فـكرة هى العقدة الحيوية فى التربيـة والتعليم ألا وهى حمل مدرسى الكليات على أن يهتموا كل الاهتمام بالطلاب وعلى أن يبذلوا ما فى وسعهم لتشويقهم إلى العلم . والسبب فى ذلك ان الطلبة هم الذين يقومون بدفع رواتب الاساتذة ولما كان لـكل علم من العلوم عدد كبير من المدرسين الاحرار فان الطالب يتجه طبعاً نحو الاستاذ الذى يجيد التدريس ويتقن طرقه لذلك نرى المدرسين يتنافسون فى العناية بتثقيف الطلبة وفى اجتذاب اكبر عدد ممكن منهم إلى دروسهم ليتسع لهم سبيل الرزق فتراهم يعمدون تارة إلى الابتكار فى طرق التدريس وتارة فى نشر أبحاثهم العلمية القيمة علماً منهم بأن هذه هى الطريقة

الفذة التي توصلهم إلى نيل المناصب العالية والوظائف الدارَّة أما مدرس الكلية فى فرنسا فموظف حكومى يتقاضى راتبا ثابتا وليس له أقل مصلحة فى أن يستهوى عقول طلبته وأن يشوقهم إلى العلم ويحببه اليهم ولو أنه كان يتقاضى راتبه منهم لاضطر إلى تغيير طرقه فى التعليم والا سقط فى ميدان المسابقة وحلّ محلَّه من هو أصلح منه و بفضل هذه المنافسة الحرة فى التدريس أصبحت الجامعات فى المانيا وقد توافر لديها هيئة محترمة من كبار العلماء والمدرسين لا نظير لها فى العالم المتمدين

لذلك يقول جستاف لبون.

« اننا إذا أردنا أن ننهض من الهوة التي وقعنا فيها فعلينا أن نقلد الألمان وعلينا أن نبدأ بالسير فى الطريق الذى سلكوه ووصلوا فيه إلى النهاية

ولقد فكر الألمان طويلا فى الكلمة الحكيمة التى فاه بها (ليبنز)

Donnez-moi l'Education et je changerai la face de l'Europe avant un siècle.

ومعناها « سامنى قيادة التربية وأنا كفيل بتغيير وجه أوربا قبل قرن واحد من الزمان »

ننتقل بعد هذا التمهيد إلى الموضوع الاصلى وهو التربية فى أمريكا

التربية والتعليم فى امريكا

يقول الدكتور جوستاف لبون ان للمقارنة دخلا كبيراً فى تكوين عقولنا وتحصيل معارفنا ويجدر بنا لكى ندرك كنه أسباب انحطاط التعليم فى الجامعات عندنا أن نقرنه بالتربية فى أرقي بلاد العالم تربية وأشدهم عناية بأمرها ألا وهى امريكا

ان المجلات التى تتصدى لشئون التربية فى الممالك المتحدة كثيرة ولكنها لاتجدينا نفعاً كبيراً لانها مدبجة بيراع رجال الجامعات أنفسهم ولهم فيها اعتباراتهم الخاصة ووجهة نظرهم الخاص لذلك كان لنشر السفر البديع الذى وضعه حديثاً « مسيو بويز » ناظر مدرسة شارلروا فى طرق التربية الامريكية رنة وضجة بلغت عنان السماء فى فرنسا وعجبوا ايما اعجاب بما علموه من نظريات الامريكيين فى التربية وقالوا ان مثل تلك التربية خليقة أن تخلق إنساناً ارقى من إنساننا

وهاك ماخطته يراعة عالم من اكبر علماء فرنسا « مسيو لوشاتلييه » قرأ هذا الكتاب فعرف للامريكان فى تربيتهم المزايا الآتية : —

قال : إن أول عاطفة تملك على الانسان نفسه عند قراءة كتاب مسيو بويز عاطفة اغتباط بحضارةٍ أرقى حقاً من حضارتنا : اعتقاد شامل وإيمان ثابت بحسنات التربية وفضلها، حرية تامة تتمتع بها المدارس على اختلاف انواعها وتبيح لها أن ترقى رقياً متناسباً وأن تُجرى من التجارب العامية ما تشاء ـ بالغة النفقات ما بلغت ـ اجلال المدرسة إجلالاً يقصيها عن السياسة ويحصنها من المعارك السياسية على شدتها وحدتها عند الامريكيين، فلسفة عميقة فى التربية تملأ الفرد حياة ونشاطاً ـ فى كل ذلك دلالة على رقى عقل وتهذيب فكر قلَّ أن يكونا لغير تلك البلاد .

وها كم صحيفةً بديعة من ذلك الكتاب النفيس جمعت أمهات مسائل التربية والتعليم :

يَنثر المدرس بدقة ومهارة الصعابَ أمام التلاميذ مرتبةً مدرجة ليواجهوها فينظروا فيحكموا فيظفروا ويفوزوا ، العمل الجسمانى يسبق العمل الفكرى دائماً أو يقارنه حتى إن أبعد العلوم عن الحس عندنا واكثرها جرياً وراء التصور والخيال تقدم إليهم فى أشكال محسة تقع عليها أنظارهم وتلمسها

أيديهم فيتعاون على سرعة إدخالها فى اذهانهم مهارة اليد ودقة الفكر

فعلم الجغرافيا أعمال يدوية محضة ودروس اللغة والانشاء تعلم فى المعامل لشدة ارتباطها بالرسم والحفر والصب اذ من الرسوم والصور والمجسمات تنتزع الافكار وأساليب التعبير

الحركة فى أرقى صورها والاشغال اليدوية التى تحترف بها جميع المدارس على السواء وتدين بقيمتها التهذيبية هما أحسن درس وخير تمرين للنفس على الصبر والثبات والارادة

التعليم كله فى كلمة : يعمل الجسم مع العقل جنباً لجنب دائماً : والتعليم الثانوى الذى هو حلقة الاتصال بين طور الطفولة وطور الشباب يسير على هذا النمط بعينه — قرن العلم بالعمل — Instruction par l'action مع التوسع فى ذلك كلما ارتقت مدارك التلاميذ فتزداد المسائل المطلوب منهم حلها صعوبة كما يزداد الغرض المطلوب الوصول اليه بعداً والعقبات عراقةً وكآدةً

تحرير العقل والعاطفة من كل وصية ورقابة . انتقاص سيطرة الاساتذة تدريجاً مقابل نصيب صالح من التبعة

والمسئولية تلقى على عاتق الشبان والشابات تدريجاً كذلك ، ذلك هو الغرض الاسمى الذى ترمى اليه التربية

يحمل التلاميذ على العمل بحرية تامة كأنهم وحدهم فى الدنيا بلا رقيب ويحبب اليهم السرور يأتى من طريق الجهد والمعاناة والفرح ينشأ من عراك الصعوبات ومكابدة العقبات . ويدربون على ضبط النفس والاقتدار على زجرها وقمعها "Self control" كل أولئك هو مهمة المدرسة العظمى ووظيفتها الكبرى فلا الحقائق ولا النظريات تلقى شفهياً على التلاميذ لان الامريكيين ينفرون النفور كله من النظريات المهيأة المجهزة ومن التعريفات والتصورات الا اذا خلقها العمل وانتجتها التجارب

لم يبق فى المدارس كلها من أثر لتلك الطرق التى ترى الفائدة كلها فى تلقين العلوم عن طريق الشرح والكلام دون ان يترجمها التلاميذ بالافعال والأعمال ويرى المدرسون ان التعليم على العموم والعلمى منه على الخصوص لايمكن ان يكون تعليما منتجاً مفيداً إذا لم يمرن التلاميذ على كشف الحقائق وحل المسائل العلمية بانفسهم وتلك طريقة الاستكشاف من

جديد Rediscovery المتبعة فى المعامل والمصانع دائماً ولم يبق للدروس النظرية التى تعطى فى الفصول بطريقة الالقاء قبل بدء الدروس العملية التطبيقية أو معها أو بعدها أهمية تذكر. أما المذكرات التى يكتبها التلاميذ بانفسهم فى أثناء الدراسة العملية بالمعامل والمصانع التى يصفون فيها مشاهداتهم وتجاريبهم الخاصة فانها قطب الرحى وأساس التعليم والمقياس الصحيح الذى يسبر به غور التدريس لانها هى وحدها التى تدل دلالة صحيحة على كفاية التلاميذ ومبلغ استعدادهم واقتدارهم على تلمس اسرار النظريات واستنباط قوانينها من ملاحظة الادوات والاجهزة

ولا يعير الاساتذة أهمية ما لتلك المذكرات التى يلتقطها التلاميذ من أقوالهم فى أثناء الدراسة النظرية والتى لها الصيت الذائع والقدح المعلى فى جميع المدارس الاوربية

وفى مدارس التعليم العالى يستمر الفوز للجهد والغلبة للابتكار والاختراع ، والدعامة الكبرى التى يشاد عليها التدريس فيها هى ترك الطلبة يجرون التجارب العامية بانفسهم دون ان يتجاوز تدخل الاساتذة فى شؤونهم حد النصح

والارشاد وليس لهم فى ذلك من غرض سوى استجلاء الاستعدادات الحقيقية لكل تلميذ وتبين ملكاته وقرائحه وقدرته على العمل والاستنباط

غرس بذور الارادة فى أفئدة الاطفال والشبان وانماء حب العمل والمثابرة عليه فى قلوبهم من بدء حياتهم والاسراع فى نقلهم من طور التبعية إلى طور الاستقلال واعدادهم بالطرق العامية المحكمة لأن يتولوا شئونهم بانفسهم والا يعولوا فى امورهم إلا على جهودهم Self Support تلك على ما يظهر أعظم الامانى وارفع الغايات التى تطمح اليها أنظار القائمين بشئون التربية والتعليم فى المدارس الابتدائية والثانوية والعالية

تربية العمال

أما تربية العمال فى المدارس الصناعية على اختلاف انواعها فانها ترتكز كذلك على طريقة التعليم بالمحسات والتجارب ولكن مع التوسع فيها إلى أقصى حد وأبعد مدى حتى ان العامل الأمريكى الحالى ليعتبر فى نظر الاوربيين القدوة المثلى والمثل الاعلى الذى يطمحون اليه فى ترقية عمالهم على مدى الايام

لانه فى الغالب رجل مستنير العقل مدرب الفكر واسع الحيلة وبخاصة فى الحرف والصناعات الراقية

أما عهد العامل فى الزمن السالف الذى كان لا يتجاوز عامه حد القوة العضلية والتقاليد القديمة وطرق الاسلاف المتوارثة فقد مضى وانقضى وأصبحت التربية فى جميع المدارس الصناعية مبنية على طريقة الاقتصاد فى الأيدى العاملة وان يستبدل بها شغل الآلات الميكانيكية الحديثة الدقيقة Saving Labour التى لا تتطلب من قوى العامل الجسمانية قدر ما تتطلبه من قوة فكره ودقة ملاحظته وحضور بديهته فى اتخاذ القرارات السريعة لتلافى الطوارئ العارضة ولقد أحدثت سرعة التغيير والتحسين فى الآلات الصناعية الحديثة وطرق إدارتها صفات جديدة فى العامل الامريكى عقلية أكثر منها جسمانية وتعمل جميع تلك المدارس على تنمية تلك الصفات فى العمال وترسيخها فى اذهانهم لتصبح على مدى الايام سجية لهم وغريزة فيهم

وفى تلك المدارس تبنى الدراسة النظرية على المشاهدات والمحسات كما فى مدارس التعليم العام وتستند الدروس الشفهية إلى التمرينات التجريبية والأعمال اليدوية التى من شأنها ان

تضيف إلى المعلومات الاساسية فى مختلف الحرف والصناعات قوة المراقبة وتنبه الذهن ومهارة اليد وحذق الصنعة

وليس للاخصاء أثر ما فى تلك المدارس لانها تحاول ان تربى العمال تربية صناعية عامة توسع بها مداركهم وتنمى فيهم حاسة التنفيذ من جهة ومن جهة أخرى تجنبهم خمود الذهن وضيق الصدر وملل النفس ، تلك التى تستولى عليهم من جراء مزاولة حرفة واحدة وتكرار عمل واحد على وتيرة واحدة كما هى الحال فى صناعة الوحدات المتماثلة كالسيارات المتنوعة التى أصبحت المعامل تخرج منها الملايين

وإذا قيست الأعمال بنتائجها كان لنا من عظيم مقدرة العمال فى امريكا على الانشاء والاختراع والانتاج بمعونة آلات بلغت من الدقة مبلغاً عظيماً اكبر دليل على ان تلك التربية الفنية الامريكية هى انجع انواع التربية واشدها فعلا فى النفوس

وليس فيما وراء المحيط الاطلنطى أثر ما لتلك الخرافة التى رسخت فى نفوس أهل أوربا واستعصى استئصالها من عقولهم وهى احتقار الأعمال اليدوية وازدراؤها فليس هناك امريكى واحد يعتبرها وصمة مخجلة أو عملا مخلا بالشرف فلا

القضاة ولا الاساتذة يُعتبرون اسمى منزلة وأرقى عقلا من إخوانهم الاذكياء من عمال المطابع ورؤساء المعامل

اما الموظفون الكتابيون فى مصالح الحكومة فقد عرفوا من زمن بعيد مكانتهم من المجتمع ووطدوا أنفسهم على كسب لا يتجاوز ٥٠ أو ٧٥ فرنكا فى الاسبوع فى حين أن البناء أو النجار أو الحداد أو السباك يبلغ كسبه ١٢٠ فرنكا مع تساوى مدة العمل

ولقد تأصل حب العمل فى طباع أهل امريكا وشغفوا بمزاولة الاعمال حتى أن كل امريكى عامل فى جوهره وهم يقدرون الرجال باعمالهم وكفاياتهم ويزنونهم بما يحدثون وما ينتجون ولا يؤمنون بتلك الفكرة التى يؤمن بها الأوربى ويدين بها من ان الألقاب والشهادات العامية تنيل حاملها شيئاً من النبل العقلى والشرف الفكرى

ملحوظة — والسبب العامى النفسى (البسيكولوجى) الذى يدعو المربين الامريكيين إلى التعلق باهداب العمل وبحبب الأعمال اليدوية إلى تلاميذهم لهذا الحد هو انهم يعتقدون ان هناك ارتباطاً وثيقاً بين حركة أجزاء الجسم وبين الخليات المخية

المحركة (Cellules Motrices) التي هي مراكز الارادة العملية.
فاذا اقتصر على فهم النظريات وادراكها دون ان يعنى بتنمية
القوة العضلية لكل عضو من اعضاء الجسم قويت خليات
المخ المدركة وخمدت الخليات المحركة ونشأ عن ذلك وهن
العزيمة وضعف الارادة وان وجد الفكر والتصور والذكاء

ولا بد للتربية الصحيحة ان تصرف كل همتها إلى تنمية
هذه القوى على السواء حتى تخرج رجالاً يقرنون العلم بالعمل
ويعقبون القول بالتنفيذ وذلك ماتصبو اليه نفوس الامريكيين
وتطمح أنظارهم اليه فى تربية أبنائهم

تقسيم التعليم

ينقسم التعليم فى امريكا إلى ادوار أربعة يستغرق كل
دور منها اربع سنوات فيكون مجموع مايقضيه الولد فى المدرسة
ست عشرة سنة وهى : —

١ — التعليم الاولى من ٦ إلى ١٠ سنوات Primary
٢ — التعليم الابتدائى من ١٠ إلى ١٤ سنة Grammar Grades
٣ — التعليم الثانوى من ١٤ إلى ١٨ سنة High Schools

واذا كان التعليم الثانوى فنياً من ١٤ إلى ١٨ سنة أيضاً يسمى Technical Schools

٤ — التعليم الفنى العالى من ١٨ سنة إلى ٢٢ سنة ويسمى Institute of Technology

جميع أولاد الامريكيين يمرون بلا استثناء بالدورين الأول والثانى ويزيد الأقبال على التعليم الثانوى يوماً فيوماً حتى بين طبقات العمال غير أن الكثيرين يغادرونه بعد مضى سنتين عند ما يبلغون السادسة عشر من أعمارهم إما للبحث عن وظائف فى المحال التجارية والصناعية تقوم بحاجاتهم المعاشية وإما للدخول فى المدارس الفنية التى تقوم بتأهيلهم لادارة حركة المعامل

أما التعليم الفنى العالى فلا يغشاه الا صفوة الشبان وخلاصتهم على أن الكثيرين يشكون من طول مدته لأنه يؤخر موعد دخولهم فى معترك الحياة العملية

ولقد عنى الامريكيون عناية خاصة بثلاثة الادوار الاولى من أدوار التعليم وقد كانت موضع درسهم وبحثهم مدة طويلة حتى أصبح التعليم يسير فيها على نمط واحد وطبق أساليب

واحدة فى جميع أرجاء الممالك المتحدة الامريكية

والدعامة الكبرى التى يشاد عليها صرح التعليم فى أدواره الاولى هى تعليم الاشغال اليدوية وغايتهم من تدريب التلاميذ عليها أن ينشوا فيهم روح الابتكار والتنفيذ ـ أما الابتكار فبواعثه دروس الرسم والهندسة والملاحظة وأما التنفيذ فيكون بابرازهم ما ابتدعته أفكارهم إلى حيز الوجود بصنع أيديهم

وفى مدارس نيويورك يتعلم الأطفال صوغ الأشكال من عجينة مرنة لإدراك الابعاد الثلاثة وصنع الأشكال الورقية وهى ذات بعدين فقط ، وصنع الاسلاك والخيوط فى اشكال مختلفة ممثلة هندسة البعد الواحد

وجل مدارس امريكا تحذو حذو مدارس نيويورك فى اختيار موضوعات الرسم والأشغال اليدوية فى المدارس الابتدائية إذ يدور حول فكرة أساسية هى لفت التلاميذ إلى ما يقع تحت أبصارهم وفي أفق ملاحظاتهم كالمنازل وأشغالها وواجباتها و بواعث السرور فيها ثم يلى ذلك حياة المجتمع وما يتبعها من وسائل النقل ومن مشاغل الناس وملاهيهم ثم تليها الحياة المدرسية فالاجازات السنوية فدراسة المناظر الطبيعية

وتلك مايسمونها بمراكز الرغبة أو الشوق Interest Centars

ومن المحتم على المدرس قبل أن يخوض فى موضوع من تلك الموضوعات أن يثير شوق التلاميذ اليه بمناقشة تجتذب أنظارهم وتدفعهم إلى الرغبة فى البحث عنه فيندفعون إلى العمل فرحين مسرورين بما يوحيه الموضوع فى نفوسهم من إحساسات قديمة وذكريات سابقة وبذلك يقبلون على تنفيذه إقبال الهائم به كمن يريد تحقيق فكرة شخصية قامت فى نفسه ويبرز إلى عالم الملموسات فكراً جال فى خاطره فاندفاعه يكون بباعث من ارادته وقوة صادقة من عزيمته ولا غرابة فحين يوجد الشوق تنشط الارادة ويصدق العزم ويصح التنفيذ

وعلم الرسم سرعان ما يتحول فى المدارس الاولية إلى فن جميل فيخرج الأطفال إلى الحدائق والمتنزهات ليرسموا مايقع تحت أبصارهم من المناظر الطبيعية المختلفة وهذا النوع من الرسم (الرسم من الطبيعة مباشرة) يحبه الامريكيون ويحضون عليه لانه يعلم الاطفال من صغرهم كيف يترجمون ما يجول فى أفكارهم بالاشكال الجميلة والرسوم الأنيقة . ويتعلم الطفل كذلك فى المدارس الأولية الرسم بالألوان والفرجون

(الفرشة) والماء والريشة وقلم الرصاص كما يتعلم رسم الوجوه البشرية ويحذقها بسرعة لأنهم يتخذون من وجوههم أنفسهم نماذج ينقلون عنها

أما الفكرة السائدة فى المدارس الاوربية وهى تمرين اليد والعين فقط فى رسم الأشكال الهندسية ونقل النماذج الصناعية فلا يقبلها الامريكيون فى مدارسهم

فلاحة البساتين

فى مدينة واشنطون خمسة واربعون الف طفل يشتغلون بفلاحة البساتين ويقام فيها كل سنة معرض عام تعرض فيه النباتات والخضروات والأزهار والثمار التى يعهد إلى التلاميذ فى غرسها ونموها بأنفسهم وتعرض مع تلك الحاصلات أعمالهم المدرسية النظرية وكلها لا تخرج عن معلومات مستمدة من تلك الحدائق

وفى هذه المدارس يحوم تعليم العلوم كلها من جغرافيا وحساب ودروس أشياء وأشغال يدوية حول تلك الحدائق الصغيرة ويتلقى التلاميذ فيها معلومات حية طريفة محسة عن

طبيعة الأرض ورطوبتها وخصبها ونمو النبات فيها وظهور البراعم (الاكمام) والأوراق والازهار والثمار وأثر الفصول فيها

فلو قرأت مذكرة كل طفل لعرفت منها تاريخ البذر وخروج النبت ونمو الساق وملاحظاتهم على أدوار نمو النبات وظهور البراعم وانبثاق أزهارها وإيناع أثمارها وجنيها

هذا مجمل مناهج التعليم الأولى فى امريكا فاذا انتقلوا منه إلى التعليم الابتدائى تدرجوا إلى ما هو أرقى وأوسع فى تلك العلوم عينها وما يجد عليها ولا ينبو عنها وكذلك حالهم إذا ما انتقلوا إلى التعليم الثانوى فانهم يزدادون نمواً وبسطة واتساعاً فى المعارف مع حرصهم على ربط هذه الأدوار الثلاثة بعضها ببعض حتى كأنها هيكل جسم واحد يتم تكوينه فى الدور الأول ولا يزيده ما يلى من الأدوار الا عظما وقوة ونمواً



المحاضرة الثانية

حضرات اصحاب المعالى والسعادة : حضرات السيدات :
حضرات السادة

أبدأ محاضرتى بتقديم الشكر الجزيل لحضراتكم لتفضلكم بالحضور لسماعها وكل ما أرجو ان يكون لمحاضرات نقابة المعلمين النشيطة الغيورة صدى فى نفوسكم ونصيبٌ صالح من اهتمامكم والتفاتكم فان مسائل التربية والتعليم ليست وقفاً على فريق من الأمة دون فريق ولا طائفة دون طائفة بل هى ملك للجميع ويجب ان يهتم لها الجميع

ولم أر أمة أدركت هذه الحقيقة الناصعة وقدرتها قدرها إلا الأمة الأمريكية فترى أبواب المدارس على اختلاف انواعها مفتحة لكل زائر صغيراً كان أو كبيراً غنياً أو فقيراً محامياً أو طبيباً مزارعاً أو تاجراً أو عاملا الخ

كل هؤلاء يرون واجباً عليهم أن يزوروا المدارس من حين لآخر ليتفقدوا سير الدروس بها وليبدوا ما قد يعنّ لهم من الملاحظات

واذا أراد ذوو اليسار منهم أن يظهروا سرورهم من تلك المدارس فعندهم الف طريقة وطريقة لاظهارها والامريكان فى هذا أجود من الريح

بمثل هذا التشجيع يشعر المدرسون والقائمون بأمر التربية والتعليم أن وراءهم أمة ترقب حركاتهم وتهتم لأمورهم وتفرح لرقيهم فيتضاعف اهتمامهم بأمر تلاميذهم ويزدادون همة ونشاطاً ولذلك ارتقت الأمة الامريكية رقياً يحسدها عليه اكبر الامم الاوربية حضارة ورقياً

ان وزير المعارف وحده مهما أوتى من العلم والحكمة بل وعشرين معه من نوابغ رجال التعليم لايستطيعون أن يقوموا بأعباء هذه المهمة على وجهها الأتم إلا اذا شعروا بأن من ورائهم أمة يعتمدون عليها تزودهم بالنصح والارشاد وتشجعهم بالمال — بهذا وحده ترتقى التربية والتعليم وبالتالى ترتقى الأمم

كثيراً مانقرأ ونسمع أن وفود الاعيان تقصد إلى وزارة الداخلية لأمور ربما لا تكون من أهم شؤون الدولة ولم نسمع ولم نقرأ أنهم عرجوا مرة على وزارة المعارف أو المدارس لتفقد أحوال التعليم والسؤال عن المناهج الجديدة وما تنوى الوزارة

ادخاله عليها من التحسين .

ونحن لا نستطيع أن نجارى الامم الراقية ولا أن نتبوأ مكاناً محترماً بينها — الا اذا احتذينا مثالها ونسجنا على منوالها ولا بد للوصول إلى ما وصلوا إليه من أن نغير كثيراً من أخلاقنا وأطوارنا . وكل من سار على الدرب وصل

التعليم الثانوى

يحسن بنا ونحن على أهبة انشاء جامعة مصرية أن نخص التعليم الثانوى بشىء من الشرح والايضاح لانه الحد الوسط بين التعليم الابتدائى والعالى ويجب أن يكون من السعة والمتانة بحيث يُعدّ الطلاب اعداداً وافياً اما للدخول فى الجامعات واما لسد وظائف الحياة الحقيقية أى الحياة العملية كالصناعة والزراعة والتجارة

وقد عرضت عقدة تلك الدراسة المتوسطة على بساط البحث فى أمريكا كما كانت موضع الجدل والمناقشة فى اوربا بل وفى جميع البلدان المتحضرة التى يهمها أن تحكم الرابطة بين الدراستين الابتدائية والعالية وقد حلتها كل أمة على الوجه

الذى يلتئم مع أغراضها من التربية ومراميها من التعليم

وقد ارتأي الامريكيون فى هذا الصدد كما رأى كثير من الامم الاوربية ان يكون هذا التعليم المتوسط عاماً وخاصاً فى آن واحد : عاماً بأن تفرض على التلاميذ كلهم دراسة عدد معلوم من الموضوعات الهامة كلغة البلاد لمدة ثلاث سنوات أو أربع والرياضيات لمدة سنتين وقد يضم اليهما فى بعض الاحيان التاريخ والجغرافيا والتاريخ الطبيعى ، وخاصاً بأن يضاف إلى تلك الأصول المشتركة علوم أخرى يختار الطالب من بينها مايتمشى مع الغرض الذى يريد الوصول اليه كاللغات القديمة (يونانية ولاتينية) أو اللغات الحديثة أو العلوم الطبيعية أو إمساك الدفاتر أو قياس المساحات وما إلى ذلك

وقد تستغرق دراسة العلوم الخاصة ٧٠ ٪ من زمن الدراسة فى بعض المدارس و٤٠ ٪ فى البعض الآخر

هذا فيما يتعلق بنظام الدروس وتوزيعها أما ما يتعلق بالغاية التى يسعى اليها الامريكيون من هذا التعليم المتوسط فهى التوصل إلى نظام يكفل تكوين رجال ذوى جد ونشاط أضف إلى ذلك عنايتهم الكبرى ببث روح الاستقلال فى

نفوس تلاميذهم من بدء حياتهم فهم يتخلون تدريجاً عن سلطتهم ليتسنى لهؤلاء التلاميذ أن يتدرجوا فى مباشرة اعمالهم ومراقبتها بأنفسهم ويمرنوا على الابتكار والاختراع وألا يعتمدوا فى شئ إلا على ارشاد عقولهم وهداية أفكارهم .

والمثل الأعلى الذى يتطلع إليه كل أمريكى فى ذلك هو قول الصانع الامريكى الكبير (پاترسن) عن حادث وقع له أيام صباه ذلك انه قال لابيه مرة إنه فى حاجة إلى مزلق (قبقاب للسير على الجليد) فقال له يابنى امامك الغاب فخذ لك فأسا واحتطب لك حملا وبعه فى المدينة واشتر بثمنه إن شئت مزلقا

وقول رئيس جمهوريتهم (روزفلت) فى أحد مؤلفاته: لايتسنى لمجتمع من المجتمعات أن يرقى رقياً صحيحاً الا إذا عاش أفراده من رجال ونساء عيشة نقية — ساذجة — صحية وربَّوا أبناءهم على اقتحام العقبات وتذليل الصعاب لا على تجنبها والفرار منها وعودوهم ان ينتزعوا الفوز والنصر فى الحياة من طريق الجهد والمعاناة وان الرجل الجدير بهذا النعت لهو الجلْد الصبور النشيط الذى يكد ويكدح ليل نهار لحفظ كيانه واسعاد كل من يعيش تحت كنفه .

لذلك ولأسباب نفسية « بسيكولوچية » ذكرناها قبلا عُنِيَ الامريكيون عناية خاصة بتدريس مادة الاشغال اليدوية التي أصبحت ولها المنزلة الأولى بين فروع التعليم فى تحريك الجسم وإنماء القوة العضلية وتقوية الارادة العملية وهذا الموضوع الذى بلغ عندهم مبلغاً عظيماً من الأهمية اجبارى فى مقرر الدراسة الثانوية الفنية واختيارى فى المدارس الثانوية العادية الا أن التلاميذ مع ذلك يقبلون على مزاولته اقبالا عظيما لما انطبعت عليه نفوسهم من حبه فى المدارس الاولية الابتدائية

ولا يختلف التعليم فى هذين النوعين من المدارس الثانوية الا فى هذه النقطة أما باقى العلوم من تاريخ وجغرافيا وطبيعة وكيمياء فمفروضة فيهما على السواء كما أنه لا فرق بين تعليم البنين والبنات فى تلك المدارس الا فى نوع تلك الاشغال اليدوية فبينما الذكور يشتغلون فى الخشب والحديد وصهر المعادن يشتغل الاناث بالعلوم والفنون المنزلية كالطهي والغسل أو التفصيل والتطريز وفيما عدا ذلك يدرس الجنسان جنباً لجنب التاريخ والجغرافيا والرياضة على السواء وطبقاً لبرنامج واحد

ترون من هذا أولاً أن التفريع في العلوم يبدأ في المدارس الثانوية الامريكية من السنة الاولى أما في مدارسنا بمصر فمن السنة الثالثة وسيكون من السنة الرابعة في المنهاج الجديد وفي اعتقادي أن الامريكان مصيبون في رأيهم لان التفكير في التخصص مع المحافظة على الثقافة العامة يترك للذهن مجالاً أوسع للتفكير في الغاية المطلوب الوصول اليها ولا شك ان فعل الزمن المديد أغرس للرغبة في العلم وثبات العزم على بلوغ القصد

علل المربون متانة الحب الذي يشعر به الانسان نحو رفيقه في المدرسة بأنه لم يكن ابن حادثة بل فعل الزمان المديد فنبت في النفس في رفق وهوادة رويداً رويداً حتى تغلغل في طياتها واستوى كما تستوى الأزهار على سوقها أما حب المفاجأة والمباغتة فلا يقيم في القلب الا ريثما يخرج منه، على أن التفريع في العلوم للاخصاء يبدأ في كثير من المدارس الحرة الاوربية منذ التعليم الابتدائي وما ذلك الا ايماناً بأن الشغف الحقيقي بالعلوم لايكون الا من فعل الزمن المتطاول فاذا نوى الطفل وهو في طفولته انه سيصير طبيباً مثلاً ثم دأب على أنه

يرى من وقت لآخر مايذكره بهذا المصير غرس حبه فى قلبه تدريجاً وصبغ له الأمل والخيال ذلك المصير بالصبغ الجميل فيزداد به شغفاً وحباً

سمعت سنة ١٩٢٢ فى مؤتمر التربية الخلق الدولى مربية سويسرية تخطب أمام هيئة المؤتمر فى كيفية تربية الحب البنوى عند النساء فقالت : يجب أن نُشعر البنتَ بحياة الزوجية المستقبلة من يوم ان تشعر بوجودها فتكون لعبتها تمثال عروس تداعبه وتلهو به ثم تتدرج إلى أدوات الشراب والطعام التى تناسب لعبها ثم إلى متاع شبيه بمتاع المنازل ثم إذا شدت وعقلت وشبت وترعرعت وكل اليها الاشراف على تربية طفل من أطفال الملاجىء تقوم بنشأته ورعايته مدة سنتين كأنها أمه تحنو عليه ويسعدها أن يكون صحيحاً معافى فلاينتهى بها ذلك الدور الا وهى ربة منزل ماهرة ، قد شغفت بحياتها الجديدة حباً وتأصل فى روعها ان سعادتها لا تكون الا فى منزلها وأنه على تعلقها بأبنائها وغيرتها على تقويمهم وتهذيبهم تتوقف حياة الوطن وسعادة الامة. لذلك يقول المربى العربى :

« أطبع الطين ما كان رطباً وأغمز العود ما كان لدناً »

وهل اللدونة والطراوة إلا فى غض الشباب وريعان الصبا

وثانياً — ان التعليم الثانوى عندهم ليس علمياً خالصاً كما عندنا بل أنهم أنشأوا مدارس خاصة بالتعليم العلمى واعداد الطلاب للتعليم العالى من غير أن يضحوا بالتربية العملية الفنية High-schools كما أنشأوا مدارس ثانوية أخرى لها حظها من العلم أيضاً ولكن عنايتها بالحياة العملية أشد، والذين يخرجون منها يستطيعون أن ينصرفوا إلى فروع الحياة العملية الحقة Technical Schools

ثالثاً — ان نصيب البنت من التعليم لا يكاد يختلف عن نصيب الولد فى شىء إلا فى نوع الأشغال اليدويه أما الثقافة العامة فواحدة فيهما والسبب فى عناية الامريكان بتربية البنت تربية عامية كاملة هو اعتقادهم ان المرأة تجود بكل ما منحت وتعطى كل ما وهبت فاذا ماهذبت وتثقفت دفعها كرم طبعها وصفاء جوهرها إلى التفانى فى ايصال جميع معلوماتها إلى أبنائها وتلاميذها فى غير شح ولا بخل فهم يؤمنون بأن مستقبل بلادهم بين يدى المرأة وأن عليها وحدها تتوقف سعادة الاجيال المقبلة المتعاقبة لذلك هم لا يدخرون وسعاً فى تهذيبها وترقيتها

إلى أبعد حد مستطاع وان الذى يرى المطابخ ومصانع تفصيل الملابس الملحقة بكل مدرسة ثانوية تهوله ضخامة بنائها واتساع أرجائها وفيها تتعلم الزوجة المستقبلة بالطرق العملية التدريجية كل ما من شأنه ان يضمن لها استقلالا حقيقياً داخل حدود بيتها

ولا يرى الامريكان رأى الاوربيين فى فصل البنت عن الولد فى المدارس لأنهم يعتقدون ان تعليم البنات فى مدارس خاصة بهن كما هو الحال فى مدارس اوربا تعليم سطحى صناعى لا خير فيه

ولكى تقفوا على تدريس مادة الاعمال اليدوية فى تلك المدارس أذكر لكم نماذج من تعليم الطبيعة والكيمياء والهندسة لان طريقة تدريسها واحدة ولا يفوتنى قبل عرض تلك النماذج أن أذكّر حضراتكم بأن الامريكيين هم المخترعون لمعامل الكيمياء والطبيعة التى نراها اليوم منتشرة فى جميع البلدان . ولا يُعلم أن مدرسة ثانوية أوربية وصلت فى التعليم من طريق العمل learning by doing الى ما وصلت اليه المدارس الثانوية الامريكية

يقول مسيو بويز : إنه زار ما يقرب من عشرين معملا من تلك المعامل ورأى الطلبة وهم يعملون بها بكل ما أوتوا من جد ونشاط وقدر ما لها من الأثر النافع والفعل الصحيح فى خفة حركاتهم وايقاظ عقولهم وقد كان موضوع التجربة التى أجراها التلاميذ أمامه فى مدرسة "Crane Manual Training School" تحقيق قوانين البندول ورأى ان الشبان والشابات عند ما فرغوا من العمل وانتهت التجارب أقبلوا على مذكراتهم ودونوا فيها بكل بساطة وبكل اختصار ما يأتى : قوانين البندول — ذبذبات البندول الصغيرة متساوية فى الزمن — لا علاقة لمدة الذبذبات بالكتلة — المدة تناسب الجزر التربيعى لطول البندول . انتهى . فليس بين الظاهرة الناتجة وعقل التاميذ وعينه محل لذلك الحشو الممل من الجمل والاصطلاحات والتعريفات التى يجب استظهارها بل إن الحقيقة المجردة العارية هى التى تتجلى أمام أعينهم ثم تدخل فى ذاكرتهم كأنها ملكهم الخاص .

وتسير التجارب طبقاً لرؤوس مسائل مختصرة من متون الكتب Text books تبين الغاية من كل تجربة والاحتياطات التى يجب اتخاذها تحاشياً للوقوع فى الخطأ

والى حضراتكم نموذجاً من نماذج التجارب الـكيمائية التى كان يجريها طلبة مدرسة "Mac Kinley Training High School of Chicago" أثناء زيارة مسيو بويز لها (التغيرات الـكيميائية للنحاس)

(١) خذ قطعة نحاس وتأملها . هل يشاهد عليها تغيرات ظاهرة اذا سخنتها فى أنبوبة اختبار وهل تذوب فى المـاء ؟ ما صفات النحاس الاُخرى ؟

(٢) ضع قطعة صغيرة من النحاس فى أنبوبة اختبار بها حامض أزوتيك مركز . دوّن بدقة وعناية ما يطرأ من الظواهر ومتى انتهى تأثير حامض الازوتيك ، صب السائل فى جفنة من الصينى وبخره بوضع الجفنة على شبكة معدنية فوق مصباح بنزن . سخن بهدوء واحذر أن تسخن بشدة اذا ابتدأ التجفيف

(٣) بعد التبريد أجر على الجسم الحادث نفس التجارب التى اجريتها على النحاس على حسب ما هو مبين برقم ١

(٤) هل اذا بخرت ثلاث أو أربع نقط من حامض الازوتيك تحصل على ما حصلت عليه عند مابخرت النحاس وحامض الازوتيك ؟

وازن بين رقم ٣ ورقم ١ ثم استنبط مع ملاحظة ما جاء برقم ٤ نتائجك ودافع عنها بالحجج القاطعة استناداً الى ما اكتسبته من التثبت والخبرة فى العمل

يقول مسيو بويز : إن من يعلم مدى كراهية تلاميذنا لدراسة علم الكيمياء من الكتب والمختصرات والمذكرات يأخذه الدهش حينما يرى السرور بادياً على وجوه التلاميذ الامريكيين وهم يتعامون بالادوات والاجهزة ذلك العلم النفيس الذى لم تعد تخفى أهميته العظمى على أحد سواء أفى قيمته التهذيبية أم فى تطبيقاته الصناعية

إن الأثر الذى يبقى في أذهاننا بعد مغادرة المدرسة من دراسة علم الكيمياء التى نسميها تجاوزاً بالكيمياء العملية لا لسبب سوى أن المدرس يُجرى من حين لآخر بعض التجارب بمرأى من التلاميذ ، ذلك الأثر هو أن النظريات والقوانين هى أصل العلم والاساس الذى يشاد عليه أما الحقائق والتجارب ففى المنزلة الثانية ولا تأتى بعدُ الا لتحاول — ولو بالاكراه — تأييد تلك النظريات وإثباتها وأن علم الكيمياء بحذافيره معلق على النظرية الذرية التى لو أغفلت لأوصد بابه

الاجتهاد ولاستحال التحليل واستعصى الاختراع وإن المبتدئ من الطلاب ليخيل اليه أنه بلغ ذروة الرقى اذا عرف أن الماء هو ايد ٢ وإن لم يكن يدرك لذلك الرمز اصلاً ولا معنى

أما في امريكا فان النظريات والقوانين تستكشف استكشافاً بالعمل والتجربة كما قدمنا ولا شك فى أن هذه هى الطريقة المثلى للتدرج في الابتكار والاختراع

فبينما ترزح مدارسنا تحت عبء تلك الطرق العتيقة التى تقف التلميذ موقف المستمع المتقبل لا الممثل الفاعل اذ بمدارس الامريكان تجاوبها بكل افتخار بما تنعم به من الطرق الحديثة التى ترمى دائماً وبكل الوسائل الممكنة الى استخراج ما كمن في التلميذ من جهود وملكات وارادة ومنطق ومهارة وتوجهها جميعا للعمل جنباً لجنب متخذة لها فيذلك كله شعارهم المشهور "push — Help Yourself" ومعناه :

ما حك جلدك مثل ظفرك   فتول أنت جميع أمرك

ليأخذوا الأطفال من حداثة أسنانهم . بالاعتماد على النفس والجراءة على الخوض في غمار الحياة وتجربة أمورها واقتحام عقباتها مهما كلفهم ذلك فهم يعلمون الطالب كيف

يكون وصولياً ولكن على أرقى وأشرف أساليب الوصولية
Arrivisme

تأثير هذه التربية الاستقلالية فى نفوس الامريكان

كان طبيعياً بعد ذلك أن نفهم من تربيةٍ تطرق ذلك الطريق وترمى دائما الى اعداد كل فرد لان يقوم بنفسه ويستقل بأموره في هذا المعترك أن الامريكان قوم بلغوا من جمود العواطف وقساوة القلب مبلغاً عظيماً فلا يعنيهم أمر الجائع ولا يشغلهم شأن البائس وهذا نتيجة ما يسميه الافرنج الفردية المتطرفة «L'individualisme à outrance» غير أن من ينعم النظر في أخلاقهم الاجتماعية يرى أنهم يفهمون من الصدقة والاحسان معنى غير المعنى الذى تفهمه الحضارة القديمة ذلك انهم بحثوا عن علة الشقاء فاجتهدوا في ملافاتها وعرفوا مكمن الداء فعمدوا الى استئصاله . عرفوا أن علة الفقر الجهل فأقاموا دور الكتب بكل سبيل وفتحوا مدارس لكل طالب وأوجدوا عملا لكل عامل ووسيلة لكل مستطيع فليسوا مثل الأمم القديمة تداوى ظاهر العلة وتبرئ اليوم ما ينتقض غداً

فتطعم الجائع وتسد حاجة المحتاج وهى بذلك انما تعطل جمهوراً كبيراً تحتاج البلاد إلى جهوده وتعوده الرحمة الضارة وتحرم الوطن الانتفاع بوجوده فلا هي أحسنت إلى هؤلاء ولا إلى الوطن بهذا الاسلوب من الشفقة والرأفة

والآن أعرج بحضراتكم على فرنسا التى ترسف في قيود طرق التربية العتيقة العقيمة كما يعترف به كبار علمائها وكتابها والتى لا تزال إلى اليوم تئن أنيناً مراً من ذلك المرض الاجتماعى الخطير الذى نجحت أمريكا نجاحاً باهراً فى استئصال شأفته من بلادها بفضل تربيتها الحقة وتعليمها الصحيح ذلك المرض هو وجود جيش عرمرم من ابنائها العاطلين وجلهم من الذين قضوا شبابهم بالمدارس والجامعات وحصلوا منها على الشهادات والدرجات والالقاب العلمية العالية

يقول جوستاف لوبون إن الدعامة الكبرى التى يشاد عليها صرح التعليم فى مدارسنا الثانوية والعالية هى حفظ الكتب الضخمة واستظهار الشروح المطولة وشحن الادمغة بنظريات لا تستقر فيها الا ريثما تنقضى أيام الامتحان شأن كل علم يصل الى العقل من طريق السماع وليس للنظر فيه مجال

واذا كان الشاعر العربى يقول فى مجال السياسة : السيف أصدق أنباء من الكتب ـ فانا أقول فى مجال التربية والتعليم العين أصدق أنباء من الأذن

والروح السارية فى الجامعات بل وفى المعاهد العلمية كلها هو الاعتقاد بان قيمة الرجال تقاس بمقدار ما يطيقون ان يحفظوا وما يستطيعون أن يسمّعوا فلا فرق عندنا بين خريجى الجامعات وحاملى البكالوريا الا أن الصنف الاول يخزن فى ذاكرته من المعلومات اكثر من الصنف الثانى وليس إذن بغريب أن يضؤل الانتاج العامى الفرنسى وتنحط مكانته العامية بين الأمم

نحن نعترف بان عندنا مهندسين وأطباء وأساتذة يفوقون مناظريهم من الأمم الأخرى علماً ولكنهم للأسف إذا وضعوا قدمهم فى ميدان الحياة العملية الحرة أظهروا من الخبل والعجز ما لا يشرف رجال الجامعة الذين خلقوهم خلقاً صناعياً والذين وصفهم الناس بحق انهم علماء بلهاء Idiots Savants أما إذا منحتهم الحكومة وظائف فيها فان ذلك النقص الفاحش والعجز الظاهر يظل مخبوءا مستوراً ولا يظهر جلياً إلا عند

مزاولة الاعمال الحرة ولا سيما الصناعات والحرف التى تتطلب مهارة ودقة كحرفة المهندس مثلا . واليكم اقوال أحد الاساتذة امام لجنة التحقيق :

ان المهندس الالمانى عند خروجه من مدرسة فريبرج (Fribourg) مثلاً يستطيع أن يباشر العمل من فوره وله قيمة فنية يعترف بها رؤساء المعامل والمصانع الكبيرة . أما المهندس الفرنسى الخارج من سنترال الذى يعلم من العلم النظرى مالا يعلمه المهندس الالمانى فانه قل أن ينتفع به فى هذا المضمار لانه كما يقولون :

Apte à tout مستعد لكل شئ

bon à rien ولا ينفع بشئ

ولذلك يختار رؤساء المعامل والمصانع فى فرنسا عمالهم من خريجى مدارس الفنون والصنائع بها ويؤثرونهم على المتخرجين فى مدرسة سنترال

وما ينطبق على المهندس ينطبق على الجندى والطبيب والمعلم وغيرهم

كتب مسيو (دوسوسير) أحد ضباط البحرية

الفرنسية مقالا فى كيفية تعليم تلاميذ المدرسة الحربية الرماية قال فيه: إن هؤلاء الشبان يقضون الأيام والشهور فى حفظ نظرية الرماية من الكتب، والمدافع أمامهم، وليس لاحد أن يلمسها بيده ثم يمر الممتحنون فيمنحون أعلى الدرجات لمن يحسنون الحفظ ويجيدون التسميع ولو اننا أردنا خيراً بابنائنا وتوخينا معهم طرق التربية الحقة لتركناهم يضعون أيديهم فى العجينة مباشرة ويفكون المدافع قطعة قطعة ثم يعيدون تركيبها المرة تلو المرة وإنى لواثق أن التلميذ الذى يطلق مدفعاً بعد حله وتركيبه بيده يعرف من نظرية الرماية والتصويب أضعاف ما يعرفه منها مَن حفظها من الكتب واستظهرها من الشرح

لا نريد أن نسترسل فى ايراد الأدلة والشواهد الصادرة عن أفاضل الكتاب والعلماء ولا سيما الذين ساحوا فى الدنيا وجاسوا خلال الأمم وخبروا أحوال الشعوب ووقفوا على أسرار رقيها أو انحطاطها مثل « مسيو دوسومير » المتقدم الذكر لان الانسان يكاد يخجل من تكرار أمور كهذه أضحت واضحة وضوح البدهيات غير أن من يراها بعينه يدرك مدى

تأثير عقلية رجال الجامعة فى جميع معاهد التعليم ومبلغ ما جروه علينا من الويلات بفضل طرقهم العقيمة فى التربية والتعليم فلقد صيرتنا امة تتعلق باهداب النظريات بعيدة عن الحقائق عاجزة عن تكييف الظروف والانثناء امام الضرورات قصيرة النظر فى الحكم على الأشياء والبصر بعواقب الأمور ولا بد من أن نعترف صراحة أن تعليمنا الحالى لا يتمشى مع التطور الحديث ولا يتفق مع احتياجات هذا العصر بل إنه من أهم عوامل الانحطاط الاقتصادى الذى تعانيه فرنسا اليوم وإنه ليحزننا كل الحزن أن نُوازِن بين رقينا البطىء فى الشئون التجارية والصناعية وبين ذلك التفوق الظاهر والنجاح الباهر الذى أحرزته الامم المجاورة لنا فى هذا الميدان ولا سيما الالمان

وكيف لا تكون الموازنة محزنة والنتيجة سيئة وقد جرينا فى تقدير الرجال فى سن العشرين على قاعدة ترتيب الشهادات التى أحرزوها من الحكومة ومن هؤلاء دون غيرهم تختار الحكومة من يتولى شؤونها ويقوم بخدمتها

أما الأفراد الذين قاموا بأنفسهم وعولوا على جهودهم ونبغوا نبوغاً عظيماً فى المدارس الحرة فلا تنظر اليهم الحكومة

ولا تستفيد من علمهم ونبوغهم لا لسبب سوى انهم لم يطبعوا بطابعها ولم يحرزوا القابها

وقد ترتب على ذلك اندفاع الشباب كلهم وراء الشهادات مضحين فى سبيل الحصول عليها بقواهم الجسمانية والعقلية نابذين وراء ظهورهم وظائف الحياة الحقيقية النافعة التى لا يتسنى لأمة أن تقوم بدونها وهى التجارة والصناعة والزراعة والاستعمار وهكذا . فكانت النتيجة المحتومة من تهافت الشباب على الدراسة النظرية أن ازدادت جموع العاطلين من الحاصلين على تلك الشهادات وزاد عددهم عن حاجة الحكومة وأصبحوا عيالا على المجتمع. وماذا تصنع الحكومة بذلك الجيش العرمرم من حاملى البكالوريا والليسانس وغيرهما . لاشك أن هؤلاء الشبان، وقد أعدتهم المدرسة للتوظف ليس غير ، ينزعون الى العبث بالنظام العام ويجنحون إلى الثورة لأنهم يظنون انهم ذهبوا ضحية ظلم الحكومة وجورها

يقول الكاتب الفرنسوى « ليون سى » ان التعليم الثانوى جنى على فرنسا جناية عظمى لانه كان من أهم العوامل التى ساعدت على نمو الاشتراكية وانتشارها فيها من جراء تلك

الزيادة المطردة فى عدد حاملى الشهادات العليا الذين لم تستطع الحكومة ان تجد لهم عملا فى مصالحها

وإنّ أظهر الأدلة على ذلك وأوضحها لهو ذلك الطالب الفوضوى (إميل هنرى) الذى بعد ان حصل على البكالوريا وأتم دراسته العاليةفى مدرسة الهندسة حكم عليه بالاعدام شنقاً

ان العلم الناقص خطر لانه يحمل الطلبة على احتقار الاعمال النافعة من جهة ، ومن جهة أخرى يحرك أطماعهم ويفتح شهياتهم دون أن يمنحهم الوسائل لارضاء تلك المطامع وأشباع تلك الشهوات

ان هؤلاء البائسين من حاملى الشهادات العالية مرّ العلم على أذهانهم فى المدرسة مرور السحاب دون أن يفهموا له معنى أو يدركوا له غرضاً فأصبحوا لذلك عاجزين عن فهم الحياة الاجتماعية وادراك نظرياتها المتشعبة المعقدة وأصبحوا لا يرون منها إلا ما يبدو لهم من مظالم موهومة وجور مزعوم

يزداد عدد هذا الجيش الكبير كل يوم ولا بد أن يزداد كلما عظم نفور الناس من الأعمال اليدوية . وتدل الأرقام والاحصاءات على انه فى سنة ١٨٥٠ كان عدد الاسر التى قدمت

أبناءها للتعليم الثانوى عشرين الفاً ، واليوم ارتفع ذلك العدد الى عشرة أمثاله . وسينبئنا المستقبل القريب عن الاسباب التى دعت الى انحطاط الأمم اللاتينية وانقراضها من عالم الوجود. لا شك ان تعليم الجامعات يكون من أقوى معاول الهدم وأهم عوامل الفناء

لقد بلغ من احتقار الفرنسيين للأعمال اليدوية أن كثيراً من العمال يكرهون أن يكون أبناؤهم مثلهم عمالاً يشتغلون بأيديهم ، وأن كثيراً من المزارعين لا يروقهم أن يخلفهم أولادهم فى حراثة الارض، ذلك لانهم ولعوا بالتوظف وآثروا نخره على الرخاء والغنى اللذين تدرهما الاعمال الحرة

ولقد كان من وراء ذلك أن صارت فرنسا تلتجىء الى الاستعانة بالطليان والبلجيكيين لفلاحة الارض والقيام بكثير من الأعمال اليدوية التى هى فى الواقع مصدر الثروة الحقيقية فى البلاد

لم يقف الامر عند استخدام الاجانب فى صميم البلاد بل تجاوزه إلى المستعمرات، فهذه بلاد الجزائر تموج بالسكان من أهل اسبانيا ومالطه على حين تفيض مدن فرنسا بالكتبة

والمستخدمين الذين قنعوا بالمرتب الضئيل ورضوا بالعيش الضنك (لان الوظائف ايضاً كالسلع فى الأسواق خاضعة لناموس العرض والطلب) والسبب فى ذلك راجع إلى أن التعليم الذى تلقوه بالمدارس لم يعدهم للمغامرة فى الحياة العملية ان لم يكن قد اقصاهم عنها . ولقد شعر المصلحون من رجال فرنسا بوخامة العاقبة من دوام هذه الحال فهذا مسيو هانوتو أحد وزراء فرنسا السابقين يصرح امام لجنة التحقيق بوجوب تحويل عدد كبير من المدارس الثانوية الحالية إلى مدارس فنية، ويقترح ادخال دروس الزراعة ضمن مقرراتها لان فرنسا بلد زراعى، وقد نجحت التجربة نجاحاً عظيماً فى عدد صغير من تلك المدارس ومنها مدرسة نيوبور المشيدة فى الخلاء والتى كلفت الحكومة نفقات طائلة، والتى كادت تغلق أبوابها لقلة الطلاب فيها ولكنها ما لبثت أن عادت اليها الحياة وماجت بالطلاب لما ادخلوا فيها الدروس الزراعية النظرية والعملية، وفى هذا وحده دليل قاطع على وجوب أن تكون مناهج التعليم متغيرة طبقاً لطبيعة الاقليم وحاجة أهله، فتضاف الزراعة إلى العلوم اذا كان الاقليم زراعياً، ويحل محلها علم المحاسبة وامساك

الدفاتر اذا كان تجارياً وهكذا حتى تجد كل مقاطعة من ابنائها من يتولى تسيير أمورها وينهض بأعمالها كما هو الحال فى المدارس الانجليزية الثانوية

ولقد قال « جول فرى » لما كان وزيراً للمعارف قولا حكيماً بشأن الاعمال اليدوية وضرورة تعليمها فى المدارس :

« ان اليوم الذى يتاح لنا فيه أن نضع المبرد والفارة بجانب بركار[1] الهندسة وكتاب التاريخ وننظر إلى جميع هذه المواد بعين واحدة ونعيرها اهتماماً واحداً لهو اليوم الذى يقضى فيه على كثير من الترهات والأباطيل من عاداتنا وتزول عوامل التفريق بين طبقات الأمة وينبعث نور السلام الاجتماعى من حُجر المدارس الابتدائية لينتشر فى جميع ارجاء البلاد وما ذلك على فرنسا بعزيز ولا سيما بعد أن نجحت امريكا فى نشر تلك الطرق فى بلادها

نعم اننا نباين الامريكيين فى سرعة القبول للجديد لان هذه الامة حديثة لم تثقلها قيود الماضى من عادات وتقاليد، اما نحن الفرنسيين فقد يكون من الصعب علينا قبول الاصلاح

---

(١) البرجل

لما لنا من سنن متبعة وعادات متأصلة ، وصعب على الانسان هجران ما تعود واطراح ما شب عليه، وتلك ميزة الامريكيين علينا فهم ليس لديهم مثلنا جامعة تُصم آذانها عن الاصلاح وتحارب كل انشاء وتجديد

لعل من سوء الحظ للأمم اللاتينية أن كان لها تاريخ قديم تعتز به ولا ترضى به بديلا فكلما دعا داع للاصلاح نكصوا على اعقابهم « وقالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتفون »

لذلك لم يتح لهذه الأمم أن تخطو تلك الخطوات الواسعة إلى الاصلاح لانها تلتفت إلى الماضى فاذا هى خطت خطوة رجع بها الشوق إلى قديمها فتقهقرت خطوات، فنحن سنستمر فى جهاد عنيف مع هؤلاء الاموات، ولعلنا غير مستطيعين فى يوم من الايام أن نُجلى من أمامنا جيش تلك الاشباح القديمة المروعة فقد مضى نحو قرن من الزمان دارت فيه الرحى وحمى الوطيس بين القديم والحديث ولم يظهر ان النصر بجانب الاحياء إلى الآن

الخلاصة

نستخلص من كل ماتقدم ان التربية والتعليم على نوعين أحدهما عماده الحفظ والثانى عماده التجربة، أما النوع الأول فقليل الجدوى ضعيف الفائدة كما أشار الى ذلك مونتين بقوله : —

Savoir par cœur n'est pas savoir.

ومعناه : ليس العلم بالاستظهار جديراً ان يسمى علماً . ويقول« كانْت» فى هذا الصدد : اذا لم يستطع الطفل ان يطبق قاعدة نحوية تطبيقاً صحيحاً فلا فائدة من حفظه إياها لانه يجهلها، وان الطفل الذى يعرف كيف يطبقها لهو الذى يعرفها حقاً وان لم يحفظها

وتسلك الامم اللاتينية الطريقة الاولى أما الثانية فتسير عليها الأمم الانجلوسكسونية ولا سيما الامريكان، فالشاب اللاتينى يتعلم اللغةمن الاجروميةوالمعاجم ولا يحرك بها لسانه، ويتعلم علم الطبيعة من الكتب دون أن يامس بيده جهازاً من أجهزتها،واذا قدر له النجاح فى الحياة العملية فيما بعد فلا يكون

الا بعد أن يتجرد من معلوماته القديمة ويبدأ بتربية نفسه بنفسه من جديد. أما الشاب الامريكي فقلّ أن يفتح كتاب الأجرومية أو اللغة لانه يتعلم اللغة بقراءتها والتكلم بها، ويتعلم الطبيعة بالتمرن على ممارسة أدواتها وادارة أجهزتها ، ويتعلم الهندسة بأن يبدأ بالدخول كعامل فى مصنع من المصانع حتى يمهر فيها بالعمل ثم يبدأ بعد ذلك بالنظريات ، وبهذه الطرق البسيطة وصل الانجليز والامريكان إلى خلق بيئة عامية من النابغين الذين يندر وجود أمثالهم فى العالم . وانما آثرت الأمم الانجلو سكسونية طريقة التعليم والتربية بالتجربة والعمل على طريقة الحفظ والاستظهار لا جرياً منها وراء المنفعة المباشرة التى تعود من ممارسة الاعمال ومزاولتها فحسب، بل سعياً وراء غاية أرفع وأسمى وهى تنمية روح المراقبة وقوة التفكير فى الناشئة، لان اجراء التجارب يستدعى النظر الصحيح إلى الاشياء ويتطلب التأمل والتفكير، أما حفظ الدروس عن ظهر قلب فلا يتطلب ذرة من التعقل والتصور

ولكى يقف حضراتكم على مبلغ تعلق الأمم الانجلو سكسونية بأهداب التعليم العملى نقتطف كلمة حكيمة وجهها

المستر بلاكى الأستاذ بجامعة ادنبرج إلى الشبان قال : —

« وصيتى للشبان ان يكون العمل ومراقبة الأشياء أول دراستهم،وأن يعلموا ان مناهل العلم العذبة وموارده الصافية لا توجد فى الكتب بل في الحياة نفسها وفى التجربة والمزاولة والمحاولة ، فاذا ماتقدم المرء إلى الحياة نشيطا للعمل جريئاً على التجريب صبوراً على المزاولة فذلك هو سر نجاحه ، وليست الكتب بجانب تلك الصفات والمزايا الا مرشداً عند الهفوة ومنبهاً عند الغفلة وساداً للكثير مما يعرض من خلل أو يطرأ من نقص ، فالكتب الى جانب التجربة مفيدة نافعة ولكنها وحدها لاطائل تحتها ولا خير فيها . وما مثلها الا كمثل المطر يهطل على أرض لم تقلبها فأس ولم يشقها محراث

ربما يتوهم ان الاعتماد على التجربة فى جميع فروع التعليم ولا سيما الادبيات منها كالجغرافية والتاريخ وعلم الاخلاق ليس بالامر الهين المستطاع ، والحقيقة ان تلك العلوم تلقن الآن للاطفال بالعمل والتجربة ليس الا . ففى درس الجغرافيا يخرج المدرس بتلاميذه الى الغيطان والمتنزهات بعد أن يزود كلا منهم بالقلم الرصاص وبيت الابرة (بوصلة الجيب) والورق

المسطر على شكل مربعات صغيرة ليعلمهم كيف يرسمون منظر الارض التى يمرون بها ومرتفعاتها ومنخفضاتها على الورق فى مستوى واحد بمقياس رسم معلوم مع المحافظة على الابعاد والاوضاع . ولا يبدأ التلاميذ بالنظريات الا بعد ان يحذقوا رسم الخرائط الجغرافية

وفى درس التاريخ يعتمد على مشاهدة ما خلفته كل أمة وراءها من مدنية وحضارة كالمبانى والنقوش والرسوم وماشا كلها، وهذه يمكن مشاهدتها بالتردد على دور الآثار أو استعراضها بالفانوس السحرى أو السينماتوغراف . ان التاريخ اذا درس للاطفال على هذا النحو فانه يترك فى أذهانهم أثراً لن يمحى على ممر الايام والاعوام، أضف الى ذلك انه أنفع لهم من استظهار الوقائع الحربية وتواريخ الحوادث وسير الملوك من الكتب

أما علم الاخلاق فيصح أن نقول إن أسلوباً غير أسلوب التجربة المباشرة فى تلقينه للنشء لا يجدى نفعاً ، وقد أشار الى ذلك بسكال بقوله « ان الاخلاق الحقة تهزأ بعلم الاخلاق » يريد بذلك ان يقول ان من يظن ان الاخلاق تعلم بتلقين قواعدها من الكتب فقد جهل طبائع الاطفال جهلا عميقاً

ان التجارب وحدها هى التى تعلم الرجال، وانها وحدها هى التى تعلم الاطفال أيضاً، فلندع الاطفال يميزون الخير من الشر بأنفسهم ، ولنعودهم من نعومة أظافرهم أن يتحملوا تبعة الشر كلما وقعوا فيه . قيل لعمر بن الخطاب رضى الله عنه: فلان لا يعرف الشر قال هذا أحرى أن يقع فيه

وهؤلاء سكان الجزر الفقيرة الذين اضطرتهم قساوة الطبيعة وضنك العيش الى الارتزاق من طريق عراك الحوادث ومكابدة الحيل (والحاجة تفتق الحيلة) الى التخلق بأخلاق الرجولة الصحيحة كالصبر والثبات والارادة والدهاء والجرأة والاقدام، لأنهم تلقوها بالتجربة ودرسوها بالعمل فكان لها هذا التأصل فى نفوسهم والرسوخ فى طباعهم ، ولا تكون أخلاق الامم أخلاقاً صحيحة ثابتة الا اذا غُرست فى نفوس أبنائها بالتجارب والممارسة زمناً مديداً ، وتلك هى الغاية التى تتجه اليها جهود المصلحين والغرض الاسمى الذى ترمى اليه التربية الحديثة التى وضع لها الدكتور جستاف لبون تعريفاً جديداً مختصراً جامعاً اتفق كبار المربين فى الامم الراقية على

اتخاذه أساساً تبنى عليه تربية النشء وهو L'Education et l'art de faire passer le conscient dans l'inconscient, ومنعاه أن التربية فن يوصل الى جعل النظريات التى تفتقر الى أعمال الفكر والروية — عادات وغرائز فى النفس تصدر عنها من غير تأمل ولا تفكر لطول المرانة والمراس. وقد فطن أركان حرب الانكليز والامريكان الى هذا التعريف وقدروا أهميته قدرها فى التربية العسكرية على وجه الخصوص لأن الجندى فى ميدان القتال مسوق الى العمل بغرائزه وعاداته وهو يعتمد عليها أكثر من اعتماده على عقله وتصوره

الخاتمة

أيها السادة

الى هنا فرغت من شرح أمهات مسائل التربية والتعليم فى أمريكا مع مقارنتها على قدر المستطاع، بمثلها فى الامم الاوربية الراقية، وليس لى من غرض الا أن أعرض على مسامع حضرات المعلمين أو الغيورين على التعليم فى مصر من أى طبقة كانوا أفكاراً سليمة جديدة فى التربية والتعليم كانت هى السبب

الوحيد فى أن أصبحت الامة الامريكية متبوئة مكانة سامية غبطها عليها أعظم الامم الاوربية حضارة ورقياً

أعرض تلك الافكار الصحيحة وأنشرها بين الناس لاعتقادى أن الانسان يجب ألا يتردد فى نشر الأفكار الصائبة النافعة فى البيئة التى يعيش فيها فانها كالبذور الصالحة لا بد أن تنبت يوماً ولو أصابت أرضاً يابسة جامدة — أعرضها وأنشرها بين طبقات المعلمين خصوصاً لعلهم ينسجون على منوالها ويحتذون مثالها فى مدارسنا أو يقتبسون منها على الاقل ما يناسب حالنا ويتفق مع ذوقنا

قد يكون من الصعب أحياناً نقل طرق التربية والتعليم برمتها من أمة الى أمة أخرى وربما لا يكون ، فاليابان مثلا وهى أمة جديدة لم تثقل كاهلها العادات المتوارثة والتقاليد المتعاقبة استطاعت أن تنقل نظام الجامعات فى المانيا بحذافيره فاينع وأثمر وأصبح لدى اليابان بيئة علمية لا تضارعها فى التثقيف وحب البحث والاختراع الا البيئة الالمانية

ومصرنا الجديدة الناهضة لا يضيرها ان تقتبس من

النظم الحديثة ما تشاء فليست المدنية الا تقليداً وانقياداً بعد تحكيم العمل والذوق فى اختيار الاصلح والانسب

وان قبول التبديل والتغيير وسرعة الأجابة لدعوة الاصلاح من اسرار نهوض الامم ورقيها ، فهذا مونتسكيو يعزو رقى الرومان وتفوقهم الى تلك المرونة فى طباعهم وسرعة اخذهم بالحسن متى ثبت لهم حسنه وقبولهم النافع والمفيد متى تحققوا نفعه ووثقوا من فائدته حيث يقول : « إن من أهم الاسباب التى جعلت الرومان سادة الدنيا وقادة العالم انهم وهم يحاربون أمم الارض جميعاً ويفوزون عليها الواحدة تلو الاخرى لم يحجموا ابداً عن التخلى عن عاداتهم والتحلى بما يجدونه انسب منها وأصلح . ثم يقول بعد ذلك « ومن المدهش أن تلك الأمم التى نازلها الرومان فى جميع الامكنة والازمنة استسلمت للفناء استسلاماً دون أن تفطن الى سبب تدهورها وتبحث عن علة شقائها »

وهل لشقاء الامم المغلوبة على أمرها من سبب سوى الجهل المخيم على عقول ابنائها واستئثار كل فرد منهم بحب

الفخار مفضلا شهوته ومصلحته على مصلحة الوطن، فالأثرة والانانية هى الداء الدوى الذى ينخر عظامنا اليوم

لقد اغريتكم أيها السادة بسلوك طريق الرومان فى سرعة قبول الجديد الموافق وليس ذلك طمعاً فى أن نسود العالم مثلهم ولكن طمعاً فى ألا يسودنا أحد وأن يكون بناؤنا بايدينا واعتمادنا على انفسنا حتى نتبوأ بذلك مكاناً لائقاً بين الامم

وليس مرادى من التمدح بسرعة قبول الجديد والرضا بالتبديل والتغيير ان نقلب الامور رأساً على عقب فان ذلك لا ينبغى أن يكون سبيل أى مصلح فرب عجلة تهب ريثاً، ولو أن مصلحاً متعسفاً بدّل الأشياء جملة فانها تواتيه حيناً ولكنها لا تلبث اذا زال عنها استبداده وارتفع سلطانه أن تعود الى قديم شأنها وسابق عهدها

إن الاصلاح الناجع ولاسيما فى أساليب التربية والتعليم هو ذلك الاصلاح التدريجى المستمر الذى يحاكى الطبيعة فى فعلها فهى التى كونت الجبال الرواسخ من ذرات الرمل الصغيرة بتراكم بعضها فوق بعض على مدى الايام والاجيال

فكرت وزارة معارفنا من عهد قريب فى تغيير مناهج التعليم وتنقيحها ورأت أن تضيف اليها مواد جديدة كالمنطق والتربية الوطنية والتاريخ الطبيعى الخ . هذا حسن فى ذاته ولكن نرجو ان تكون قد فكرت قبل أن تزيد تلك المواد الجديدة فى النقص من المواد القديمة حتى لا ينوء التلاميذ بثقل الحمل والعبء الباهظ الذى يضطرهم الى شحن أذهانهم بما لا يدوم فيها الا ريثما ينقضى الامتحان ، فلقد شاهدت بنفسى أثناء تفتيش المدارس الثانوية ان المدرسين يشكون من طول المناهج ولذلك رأيتهم يهتمون باتمام المقرر اكثر من اهتمامهم بتثقيف أذهان التلاميذ وتربية ملكة التعقل والاستنباط فيهم حيث لا يدعون لهم من الوقت ما يمكنهم من التفكير والتروى بحجة أن المقرر أطول من أن يسمح لهم بالمناقشة والاستقصاء

ليس من الضرورى أن يكون تنقيح مناهج التعليم بالزيادة فى المواد بل قد يكون بحذف بعضها واختزال البعض الآخر فسر التعليم هو فى القليل الشائق المفهوم الذى يدعو الى الاستنباط ويعوّد الحكم الصحيح على الأشياء والتبصر فى عواقبها . التعليم الصحيح كما يقولون « كيفٌ لا كمٌ »

وتلك نقطة أساسية وفكرة جوهرية فى موضوع التعليم نحب أن نوجه اليها الانظار توجيهاً خاصاً وان كنا نعتقد أنها لا تعزب عن فطنة وزير المعارف الذى لم يأل جهدا ولم يدخر وسعاً فى سبيل الاصلاح والتجديد من يوم أن تسلم مقاليد التربية والتعليم

على أننا نرحب بكل زيادة فى مقرر الدراسة تنمى فى النشء اخلاق الرجولة الصحيحة كالعمل اليدوى الذى يحبب اليهم الحركة ويعودهم الصبر والثبات والمقاومة فى معالجة شئون الحياة .

سمعنا أن وزارة المعارف اعتزمت انشاء أقسام لفلاحة البساتين، وتلك فكرة جميلة تشكر عليها وأملنا أن تتوسع فى هذا المنهاج من التعليم وتعممه فى المدارس الأولية والابتدائية كما توسع فيه الامريكان على نحو ما سمعتم فى المقال السابق ان تقتدى بها المدارس الأهليه الغنية كالجمعية الخيرية الاسلامية وجمعية المساعى المشكورة التى تملك نحو الف وأربعمائة فدان ـ كان الواجب على تلك المدارس الحرة الا تسير على منهاج التعليم النظرى أسوة بالحكومة بل تقصر جهودها على تنمية

هـذا النوع من التعليم خدمة لابناء اقليمها حتى يخرج منهم الصالحون للحياة العملية الزراعية ولا نرى منهم المتهافتين على الوظائف . وفى إعتقادى أنه لو استمرت الحال فى مصر على ما نرى من العناية بالتعليم العلمى دون التعليم الفنى لوقعنا بعد بضع سنوات فى تلك المشكلة الاجتماعية الخطيرة الواقعة فيها أوربا اليوم وهى مشكلة العاطلين من حملة الشهادات على نحو ما ذكره جستاف لبون عن فرنسا

وقد سمعنا كذلك أن الوزارة اعتزمت تدريس التاريخ الطبيعى بفروعه من حيوان و نبات وجماد فسدت بذلك نقصاً كبيراً لازم التعليم فى مصر مدة الثلاثين عاماً الاخيرة وأكبر أملنا ألا تقتصر فى تدريسه على النظريات وشرحها بين جدران المدارس ، بل المأمول أن يخرج التلاميذ فى فهم هذا العلم الى العمل والمشاهدة بأنفسهم فى الحقول والبساتين حتى تعشق أنفسهم تلك المعيشة وتستريح اليها وتقنع بها ! وأرى أن يبدأ بدراسة هذا العلم الجليل الأثر فى تنمية قوة الملاحظة من السنة الاولى .

جاء فى تقرير اللجنة البرلمانية الفرنسية أن عدد التلاميذ

الذين يعدون انفسهم للعلوم النظرية فى المدارس الثانوية [illegible] ١٨ وان عدد من يتخصص لفروع الحياة العملية من زراعة وتجارة وصناعة لا يتجاوز ٢٢٠٠٠ أعنى بنسبة ٨ من النوع الاول الى واحد من النوع الثانى ، والاولى ان تعكس النسبة لان الامم لا تعيش بالمحامين والمهندسين فحسب بل رغد عيشها من كد المنتجين من الزراع والصناع والتجار ، وهؤلاء هم نحو تسعة اعشار الامة فلا بد ان يكون لهم من المدارس ما يناسب عددهم

وهاكم ما جاء فى تقرير لجنة التجارة والصناعة المنشأة بقرار من مجلس الوزراء بتاريخ ٨ مارس سنة ١٩١٦ برياسة صاحب المعالى اسماعيل صدقى باشا « تقترح اللجنة ادخال التعليم التجارى الاولى فى المدارس الاولية والتشجيع على توسيع دائرة الدروس التجارية الليلية فى المدن العظيمة لانه من اللازم ان يؤثر التعليم التجارى تأثيره المطلوب فى الطبقات الوسطى والفقيرة من الاهالى على الأخص لانها دون غيرها هى التى حافظت الى الآن على الروح التجارية وتقاليدها خلافاً للطبقة العليا عندنا فقد بقيت ميالة الى السيادة والى

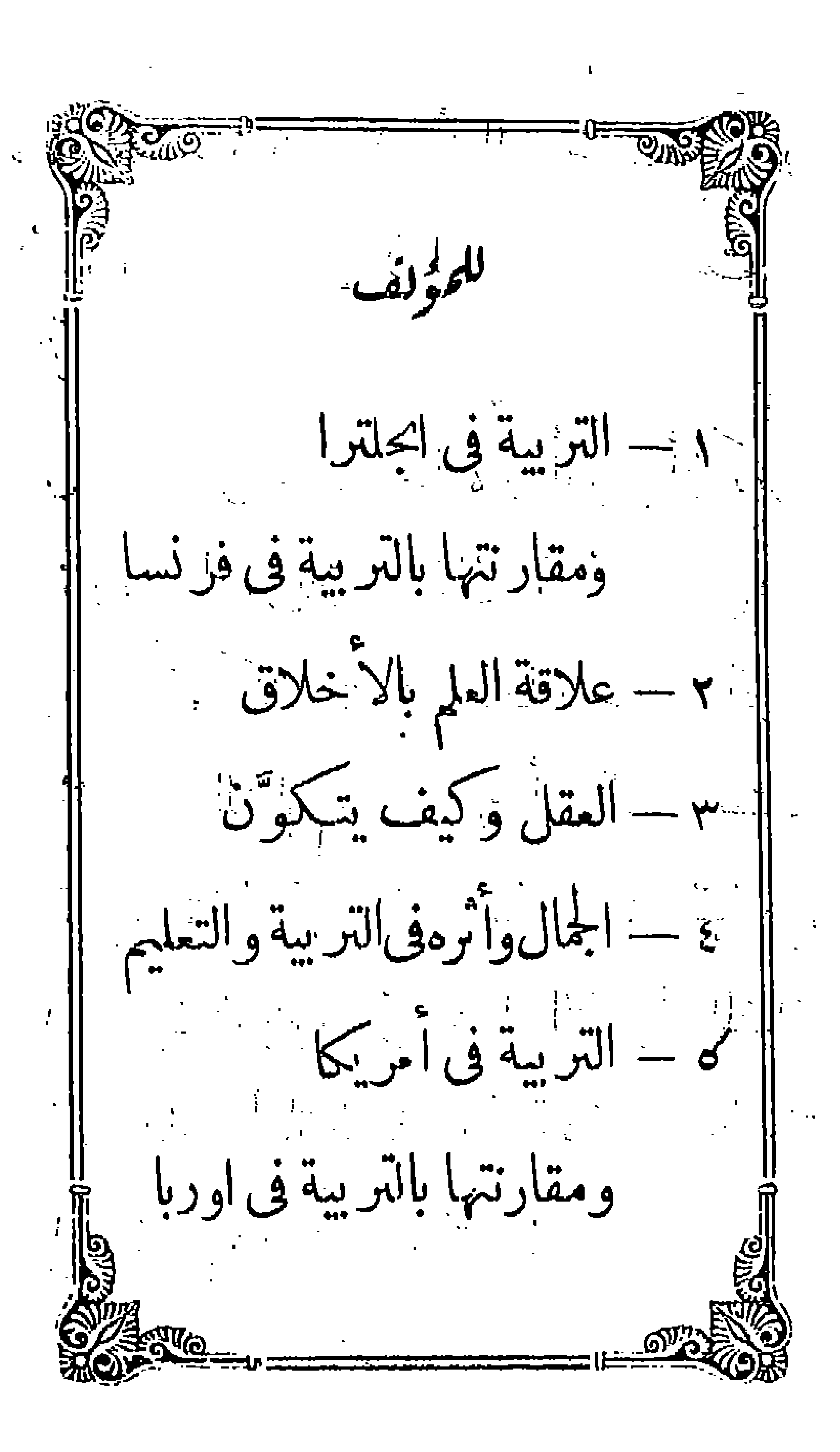
وظائف الحكومة . واقترحت ادخال المحاسبة وامساك الدفاتر في المدارس الثانوية اذا سنحت الفرصة لتعديل مناهج التعليم أو توسيعها في هذه المدارس »

وخيراً فعلت وزارة المعارف في اجابة هذه الامنية بادخالها علم امساك الدفاتر ضمن مقرر الدراسة الثانوية ، فان دراسة هذا العلم وعلم التاريخ الطبيعي تفتح المجال أمام الراغبين في الالتحاق بمدارس التجارة أو الزراعة العليا، وبذلك يصبح التفريع شاملا لخمسة اقسام عظيمة

ورجاؤنا الاخير الى وزارة المعارف ، قبل أن تبت في تغيير المناهج وتنقيحها ، أن تقتدي بالأمم الراقية فتعرض ما ارتآه رجالها على أهل الذكر في بلادها ، ففي مصر وزراء سابقون للمعارف ومديرون اداروا المدارس ومعلمون تركوا التعليم — هؤلاء يحسن أن يشركوا في الامر ليبدوا آراءهم الصالحة. فهذه انكلترا استأنست برأي كل عالم حين شاءت تغيير المناهج فأخرجت لجنتها للناس تقريرها في واحد وعشرين مجلداً بعد سنتين كاملتين في البحث والتنقيب ، وهذه اللجنة البرلمانية في فرنسا أخرجت تقريرها في ستة مجلدات ضخمة.

والتقريران يموجان بالاراء الصائبة والانتقادات الصحيحة لكل ذى رأى ولكل منتقد. ثم فيهما التاريخ الصادق لمساوىء التعليم وعيوبه مشفوعاً بالعلاج النافع والدواء الناجع

وإنى فى الختام أرجو أن أكون قد أصبت المرمى فى نقل هذه الآراء السديدة الجديدة في التربية والتعليم من اللغات الاجنبية الى لغتنا العربية السمحة، كما أرجو أن يكون لهامن الأثر فى نفوس المصريين ما كان لهافى نفوس الاوربيين الذين اعترفوا بأنها كشفت لهم الغطاء عن حقائق وأسرار فى شئون التربية والتعليم غابت عن أذهانهم واستعصت على أفهامهم وأنهم سيتخذونها مثالا يحتذونه فى تهذيب النابتة ونبراساً يستضيئون بنوره فى إعداد الاجيال المقبلة للكفاح والنضال فى ميدان الحياة العملية الحقة، فعسى أن نقتدى بهم ونجرى على سننهم، والله ولى التوفيق م



للمؤلف

١ — التربية فى انجلترا
ومقارنتها بالتربية فى فرنسا
٢ — علاقة العلم بالأخلاق
٣ — العقل وكيف يتكوّن
٤ — الجمال وأثره فى التربية والتعليم
٥ — التربية فى أمريكا
ومقارنتها بالتربية فى اوربا



